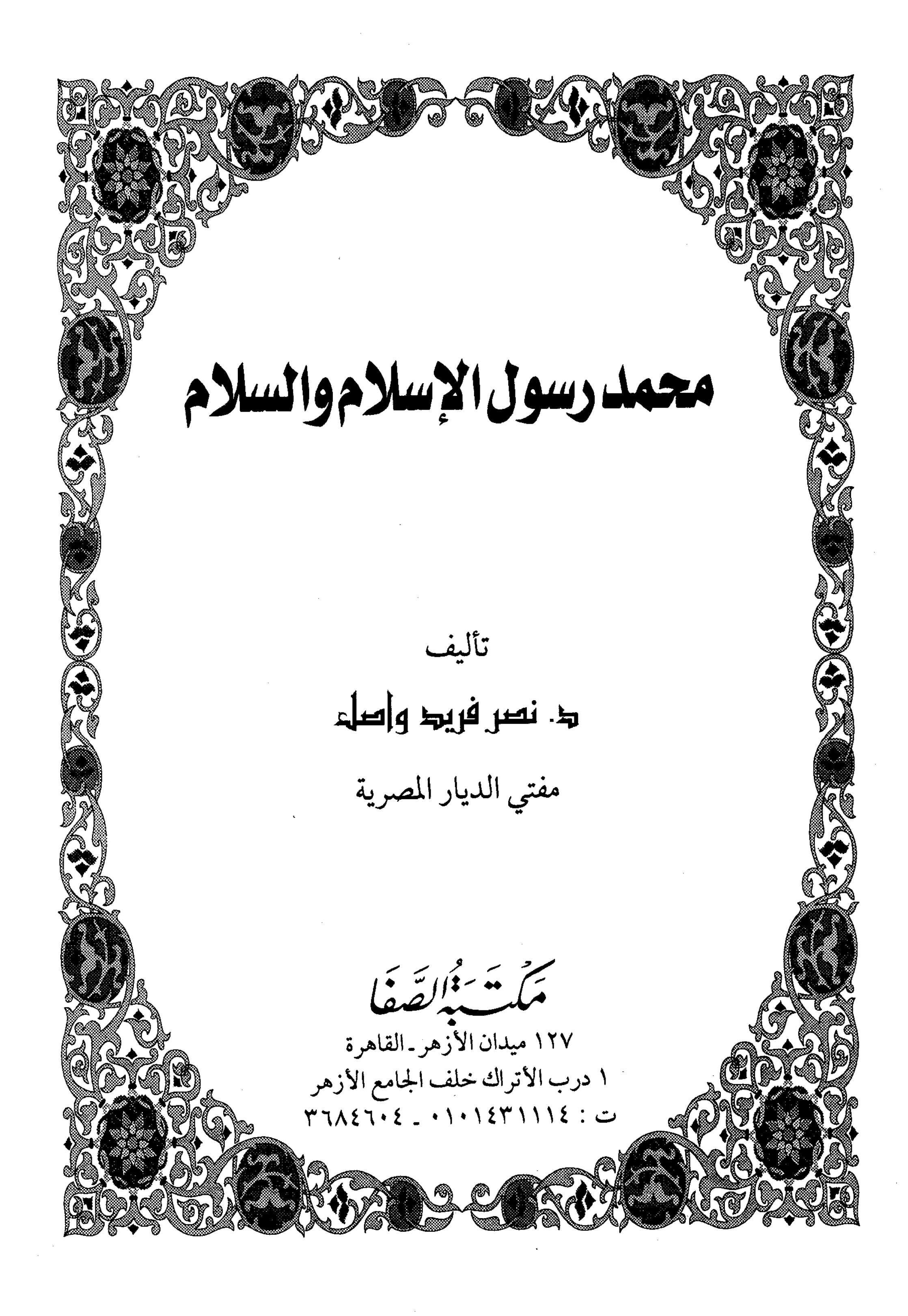


محمد رسول الإسلام والسلام

تأليف

د. نصر فريد واصل

مفتي الديار المصرية

مكتبة الصفا

١٢٧ ميدان الأزهر ـ القاهرة

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت : ٠١٠١٤٣١١١٤ ـ ٣٦٨٤٦٠٤

الطبعة الثانية

١٤٢٠ هـ ــ ٢٠٠٠ م

رقم الإيداع

٥٠٦٣ / ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبد الله الهادي الأمين الذي أرسله الله رحمة للعالمين وخاتمًا للأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن اهتدى بهديه ونوره إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذا كتاب في خير العباد وصاحب الهدى للعالمين جميعًا والرشاد محمد بن عبد الله ﷺ بينت فيه قبسًا من سيرته ﷺ ومنهجه في بناء أمة الإسلام على أدبه الرباني وأسوته الحسنة وخلقه القرآني الذي تخلق به خير الأنام ووصفه به ربه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم : ٤]. قصدي منه أن يكون مرجعًا ميسرًا للعامة والخاصة وبين يد الشباب ليكون عونًا لهم جميعًا في معرفة أصول دينهم وكل الحقوق والواجبات الدينية والدنيوية والعلاقات الإنسانية والاجتماعية المحلية والعالمية التي نزلت عليه ﷺ وحيًا من السماء وذلك بأسلوب يتناسب مع مداركهم عونًا لهم في نشر دعوة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة في كل مكان وزمان كما أمر الله وأنزله عليه ﷺ وحيًا ثابتًا إلى يوم الدين في كتاب الله الخالد القرآن الكريم وآمرًا به نبيه محمدًا ﷺ وكل أتباعه إلى يوم الدين في قوله تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص : ٥٦] .

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا هذا العمل في خدمة الدعوة الإسلامية وإرشاد العباد إلى طريق الهدي الإلهي والحق والصواب وأن يكون ذلك العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن يوفقنا دائمًا إلى ما فيه رضاه وخير الإسلام والمسلمين إلى يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دكتور / **نصر فريد محمد واصل**

مفتي الديار المصرية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله الذي أرسله للعالمين نورًا ورحمة بعد فترة من الرسل . . وبعد :

فإن الدين للإنسان كالماء والهواء لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال حتى ولو حاول الإنسان التنصل منه أو البعد عنه فلن يقدر لأن هذا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ولا تبديل لخلق الله .

فلقد خلق الله الإنسان من مادة وروح . أما المادة فهي الطبيعة المادية البشرية التي نلمسها ونحسها ونراها على الصورة الجميلة الحسنة التي قال الله فيها :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ .

وأما الروح فهو الجزء الآخر غير المرئي في الإنسان تبعث فيه الحياة . وتحوله من مادة جامدة لا تتحرك إلى حياة تملأ الدنيا حركة وصياحًا وبهجة ونشاطًا . . إنها إكسير الحياة . . إنها الجوهر الشفاف الذي منحه الله الإنسان . . إنها السر الذي احتفظ الله به لنفسه دون خلقه . . إنها من أمر الله :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ومن الروح والمادة يصبح الإنسان إنسانًا ، وبشرًا سويًّا، وهذا الاستواء إنما جاء من تعادل الروح والمادة مستويًا لا اعوجاج فيه ولا تحريف . وهكذا كان خلق الله . . جلت قدرته وتعالت حكمته ، وعلى هذا المفهوم ظل آدم أول خلق الله وأبا البشر . ينعم في الجنة حيث يشاء يحس ببشريته بما يتذوقه من ثمار الجنة وخيراتها ، ويحس بروحانيته بمعرفته لله الذي خلقه وسواه .

وعندما نسي آدم هذه الحقيقة جزءًا من الزمن كان الجزاء خروجه من الجنة

وهبوطه إلى الأرض ينعم فيها حينًا بما خلقه الله عليها ويشقى أحيانًا أخرى بما يبذله من جهد ومشقة في سبيل هذا النعيم إن عزت عليه وسائله أو افتقد طريق الوصول إليه .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَ فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ .

[البقرة : ٣٥ ، ٣٦]

وهكذا كانت طبيعة البشر جسمًا وروحًا ، وخيرًا وشرًا ، إذا اتحدا وتعادلا كانت الفطرة الأولى ، وإذا طغت إحداهما على الأخرى خرجت واتجهت طبيعة البشر إلى جهة أخرى فإذا تغلبت الروح ارتقت إلى طبيعة الملائكة الذي لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإذا تغلبت المادة انقلب الإنسان دائمًا إلى شيطان لرغباته المادية ونزواته الشيطانية ، والشيطان دائمًا عدو للإنسانية ويريد لها الزلل عن استوائها وعن الصراط المستقيم . وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَ فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ . [البقرة : ٣٦]

وكان من رحمة الله على الإنسان أنه لم يتركه لهذه الفطرة الأولى السوية ؛ بل خلق فيه من الحواس من عقل وسمع وبصر وأدوات أخرى كثيرة للإدراك ، وهيأ له من الوسائل الأخرى الخارجة عنه ما ينبهه دائمًا بهذه الحقيقة ويهديه إلى الطريق المستقيم. فكانت الأولى من نفسه ، والأخرى لرسل الله ، وكانت الأخرى بالنسبة لآدم هي ما أوحاه الله إليه وما علمه من أسماء .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ

يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة : ٣١- ٣٤] .

خرج أبو البشر إلى الدنيا ومن ذريته سعدت البشرية حينًا وضلت أحيانًا . سعدت عندما عرفت فطرتها وسارت عليها وتمسكت بها . وضلت عندها هذه الفطرة أمام التصارع على ما في الحياة وإشباع الرغبات المادية الطامحة .

وكان من رحمة الله تعالى أن بعث إليهم من وقت لآخر رسلاً منهم يذكرونهم بحقيقة أنفسهم وأخوتهم حتى تستقيم الحياة ويعمرها الإنسان . فمنهم من أجاب واهتدى ، ومنهم من عصفت بهم الشهوات وطغى عليهم الشيطان الذي أخذ العهد على نفسه بقوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وكانت الرسالات التي تأتي إلى الناس إنما كانت حسب طبيعتهم البشرية وتدرجهم الاجتماعي في الحياة .

ولقد مرت على البشرية في تطورها فترات طغت فيها المادية على الروحية ، وفيها انعدمت موازين الحياة الإنسانية وأخلاق الفطرة ، وعز على الضعيف العيش فيها في أمن وسلام ، فكانت الرسالات السماوية هداية وإشراقًا لهؤلاء الذين ضلوا الطريق وللذين عزت عليهم الحياة على السواء .

فإن الإنسان بفطرته مجبول على الخير والمحبة والسلام ، لأن الله جلت قدرته وبلغت حكمته ، قد برأ هذا الإنسان بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، وأودع فيه شعورًا بلذات وآلام غير جسدية فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية ، وقد أنشأه مستعدًا لإدراك معلومات غير محصورة، إذ خلقه ليحيا حياة غير محدودة . كما جعل الله مدار حياته على التعاون والاجتماع ، ليستعين بذلك على استجلاء ما في الكون من النظام والإبداع ، وأنشأ أفراده متفاوتين في الاستعداد للعلوم والأعمال ليتيسر لمجموع النوع القيام بجمع العلوم والأعمال .

وإن الحكماء والمصلحين والأنبياء والمرسلين بالنسبة لهؤلاء الناس كالعقول

والقلوب والأرواح . وإن هداية الدين الذي يقوم بها الرسل والأنبياء هي خير هداية للإنسان لأنها قوام الفطرة للإنسان الناهض بها إلى طلب الكمال في العلوم الإنسانية وأعمال الحياة .

يقول العلامة [هاري أرسون] في كتابه كيف تكون رجلاً حقًّا ؟ :

" إنه ما من إنسان يستطيع أن يكون غير مؤمن ، فقد ركب الإنسان من الناحية النفسانية بحيث أصبح مضطرًّا إلى الإيمان بالله ، أو بغيره . ومتى مات الإيمان الإيجابي فإن الإيمان السلبي يحل محله ".

والواقع المحسوس ، الذي نشاهده كل آن في الحياة العملية ، هو أن الإنسان ضعيف عاجز أمام أهوائه وشهواته وغرائزه الحيوانية ، وأنه في أشد الحاجة إلى معونة صوت الإيمان ليقوده في هذه الظلمة المخيفة التي تحوطه من كل جانب ، وهذا أمر طبيعي لا غرابة فيه . . إذ من الذي يستطيع أن يقود الوجدان البشري إلا تلك القوة العليا التي تحيط بكل شيء ؟ ثم أي جزاء هو أكثر رهبة في نظر الروح الخالدة من جزاء الله الأبدي الذي سيلتقي بها في حياة طويلة لا يدرك مداها ، ولا يعرف منتهاها ، وأي إغراء يسلي عن أحزان الحياة وآلامها أعلى من التفكير في عدالة الله تعالى التي ستوفى الصابرين أجرهم بغير حساب . .

وهكذا سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدرج في الارتقاء البشري كما هي السنة العامة في جميع شئون الأحياء ، حتى أكمل الله هذا الارتقاء برسالة محمد بن عبد الله خاتم النبيين والمرسلين ، وهي رسالة الإسلام .

وقد كانت الفترة التي سبقت رسالة محمد بن عبد الله هي أشد فترات الزمن حاجة إلى رسالته حيث عم الفساد في البر والبحر ، وضل الناس عن عقيدة التوحيد والفطرة وتاه البشر في ظلمات الحيرة حتى عبدوا الأوثان ، وألهوا الإنسان والحيوان .

ولما كانت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ خاتمة الرسالات فقد جاءت للناس بدين

ينظم تشريعه لهم أمور دينهم ودنياهم في السلم والحرب بحيث يكفل لهم سعادة الدارين ، الدنيا والآخرة ، ورفع الإنسانية من حضيض العبودية الوثنية والذاتية إلى عبادة الواحد الديّان .

وإن الرسالة التي بين أيدينا ستضع القارئ على ثراء الإسلام الواسع وتشريعه الخالد الذي صلح لكل زمان ومكان ، والذي حول الأمة العربية التي انطلق منها هذا الدين إلى أمة أصبحت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وانطلقت في سنوات قليلة بفضل تمسكها بهذا الدين تغزو العالم وتحقق العدل الاجتماعي ، وتقيم حضارة الإنسان في كل مكان .

وسيتبين منها مدى قوة شخصية محمد ﷺ في قيادة هذا الدين الحنيف ولماذا اختاره الله جلت حكمته دون سواه ، ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ومدى تأثيره على أتباعه خلقيًّا واجتماعيًّا ، حتى يومنا هذا .

كما سنبين مدى حاجتنا في هذه الأيام إلى هذه الرسالة المحمدية إن أردنا حقًّا الخروج من أزماتنا الداخلية والخارجية التي تهدد الأمن والسلام في كل أرجاء العالم الآن .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن يتم النفع به ، وأن يلهمنا التوفيق والسداد والنصح والرشاد إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالإجابة جدير .

المؤلف

حاجة السَّلام العَالمي

إلى رسالة محمد بن عبد الله ﷺ

كان العالم قبل بعثة محمد بن عبد الله ﷺ تتنازعه دولتان كبيرتان ، دولة الفرس في الشرق ويحكمها كسرى ، ودولة الروم في الغرب ويحكمها قيصر وهاتان الدولتان كانتا في صراع دائم ونزاع مستمر من أجل السيطرة على زعامة العالم ، والاستئثار بكل خيراته وقد أدى هذا الصراع إلى تحمل شعوب الأرض نتيجته ، فكانت هناك دائمًا بين الناس دماء مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وليل طويل على الضعفاء ذو ظلمات حالكة .

وواقع الإنسان قبله يفيض بألوان الأسى الذي كانت تتقاذفه أمواجه ، ويرسم صورة الهوان الذي لا هوان وراءه لذلك المخلوق الذي شاء الله أن يكون خليفةً في الأرض يعمرها ويستنبط خيراتها فيسعد بحياته وتسعد به حياته في ظلال معرفة الله خالق الكون وبارئ النسيم .

وأي أسى وأي هوان يصلان إلى مستوى الأسى والهوان اللذين كانا يغمران الإنسان قبل هذا النبي الكريم في كل جوانب حياته : جانب الاعتقاد ، وجانب الحياة السلوكية ، وجانب الحياة الاجتماعية بمعناها الواسع الشامل .

ففي جانب الاعتقاد كنت لا ترى بين الناس في مشارق الأرض ومغاربها إلا عابدًا للحجر أو مقدسًا للبقر ، أو راكعًا أمام بشر .

أما الفرس فكانت عبادتهم السائدة الزرادشتية التي تقضي بتقديس النار ، وبجانبها المزدكية ، والمانوية وديانات أخرى فاسدة لو بعث أصحابها لم يعرفوها . ولم يكن الوعي الاجتماعي يسمح بأن يعرف الناس خطرها فانتشرت الفوضى الخلقية ، وساد الفزع وابتلي الناس بالسفلة يدخلون عليهم في ديارهم فيغلبونهم على

نسائهم وأموالهم .

وأما قوة الروم فقد بسطت سلطانها على الغرب وتحول فيها هذا السلطان إلى صراع دموي ، ومزقتها الخلافات الدينية والمذاهب المختلفة بين ملكانية ، ويعقوبية ، طبقة الحكام وطبقة المحكومين ، وقد أفضى هذا التناحر إلى مطاردات دموية عنيفة طغى فيها سلطان الوثنية على تعليم الكنيسة .

وكان مدار الجدل بين هذه المذاهب في الغالب حول طبيعة السيد المسيح فالناظرة يغلبون الجانب البشري على الجانب الإلهي في ذات المسيح واليعاقبة بالعكس ، والملكائية أتباع المذهب الرسمي للحكومة يقولون بالطبيعتين ، وأفضت هذه الخلافات إلى تدهور خطير في شئون المجتمع [١].

أما في الشرق الأقصى فقد كانت الهند والصين واليابان لا تزال مقاطعات مفككة متناحرة ، وكانت الديانات السائدة فيها : البرهمية ، والبوذية ، وترمي كلها إلى تعدد الخالق وعبادة المخلوق .

والهند حقل رائع لتطبيق الديانات البدائية الأرضية "هينتس" إلى وقتنا الحاضر ، فقد اختلفت قوى الطبيعة ، وواجهها الإنسان الهندي وجهًا لوجه وأحس بالضعف تجاهها ، فأصبح متدينًا بطبيعته بشغف الروحانيات ويسعى دائمًا إلى معرفة الله ، ويتخذ الزهد وسيلة ليتخلص من دنيا المادة وينتظم في دنيا الروح ، وهيهات أن تجد هندوسيا لا يعبد عددًا من الآلهة حتى إنه يصلي للنمر الذي يفترس أنعامه ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوروبي ، وللأوروبي نفسه عند الاقتضاء[٢] .

وقد عرف الهنود القدماء عبادة الحيوانات وبخاصة البقر ، كما عرفوا عبادة قوى الطبيعة ، وعرفوا كذلك عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق .

(١) التاريخ الإسلامي ، للدكتور محمد الطيب النجار ص ٤ .

(٢) أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي ص ٢٨ .

وعبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطي ، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى في بعض الأحياء فيحل فيه ، فيحتمل حلوله في هذا الحيوان أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جدًّا قديمًا أو صديقًا عائدًا إلى الحياة[1] .

وقد كان للبقرة من بين الحيوانات قدسية خاصة فقد حظيت بأسمى مكانة ، وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها مع كر السنين ، وتوالي القرون ، ولا تزال البقرة حتى الآن تحتفظ بهذه القدسية .

"وفي ساماويدا" وهي من الكتب الهندية المقدسة نشيد لصلاة البقرة وهو :

أيتها البقرة المقدسة ، لك التمجيد والدعاء ، في كل مظهر تظهرين به ، أنثى تدرين اللبن في الفجر ، وعند الغسق ، أو عجلاً صغيرًا أو ثورًا كبيرًا ، فلنعد لك مكانًا واسعًا نظيفًا يليق بك ، وماءً نقيًّا لعلك تنعمين هنا بالسعادة .

ولم يستطع بنو إسرائيل في أية فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذي دعا إليه موسى عليه السلام مع جميع الأنبياء ، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحًا في جميع مراحل حياتهم وتاريخهم ، وعلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم عليه السلام إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم ، وتعد كثرة أنبيائهم دليلاً على تجدد الشرك فيهم ، وبالتالي تتجدد الحاجة إلى أنبياء يجددون الدعوة إلى التوحيد ، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أي حال ، فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح والأحجار ، وأحيانًا مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التي كانت لها حضارة وفكر .

يقول وول ديورانت : إن اليهود كانوا في مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدوًا رحلاً تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين والاعتقاد في الأرواح، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار ، واتخذوا من بيوتهم أصنامًا

(١) الله للأستاذ العقاد ص ٧٧ .

صغيرة يعبدونها ويتنقلون بها من مكان إلى مكان .

وقد ظل بنو إسرائيل على هذا الاعتقاد حتى جاء موسى عليه السلام وصحح لهم هذه العقيدة الخاطئة ودلهم على عبادة الله وحده ، ومع ذلك فإن بنى إسرائيل كما يقول وول ديورانت : لم يتخلوا قط عن عبادة العجل الذهبي لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر ، وظلوا زمنًا طويلاً يتخذون هذا الحيوان آكل العشب رمزًا لإلههم ، وتقرر التوراة قصة العجل الذي عُمل لهم فعبدوه بعد أن تأخر موسى في العودة إليهم ، وخلعوا ملابسهم وأخذوا يرقصون عراة أمام هذا الرب ، وقد أعدم موسى ثلاثة آلاف منهم عقابًا لهم على عبادة هذا الوثن . وقد بقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين(١) .

وبعد موسى تأثر بنو إسرائيل بمعبودات الكنعانيين تأثرًا كبيرًا وأصبح "بعل" إله الكنعانيين معبودًا لبني إسرائيل في كثير من قراهم ، وفي أحوال كثيرة أضبح للطائفتين معبد واحد به تمثال "يهوه" وتمثال "بعل" بل أصبح يهوه ينادى بعل ، وقد ظل ذلك إلى عهد يوشع(٢) .

وأما المسيحية وهي من رسالات السماء والتي نزلت على عيسى عليه السلام تأمر بما أمرت به الشرائع السماوية من وحدانية الله وإخلاص العبادة له وإسلام الناس له كما يشهد بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

فقد حرفت ودخل فيه التثليث وبعدت أن أصولها الصحيحة التي جاء بها نبي الله ورسوله عيسى عليه السلام .

---

(١) انظر مقارنة الأديان اليهودية ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٤ .

أما شبه الجزيرة العربية فكانت مهد الوثنية على كل حال ، حيث كان دهماء العرب يدينون بالدين الوثني ، ويقال : إن الذي نقل الوثنية إلى العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي . ولا يبعد أن يكون عمرو هذا قد نقل بعض الأوثان من بلاد الشام إلى الكعبة .

فقد روى ابن الكلبي أن عمرو بن لحي مرض مرضًا شديدًا فقيل له : "إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت ، وأتاها فاستحم بها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ، فنقلها فقدم بها مكة ونصبها حول "الكعبة"[1] .

وكان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان هبل أعظمها شأنًا ، وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى فصنعت له قريش يدًا من ذهب . وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكان يقال له هبل خزيمة .

وكان من عادة العرب في الجاهلية أنه إذا أراد أحدهم قضاء أمر لجأ إلى القداح فضربها ، فإن خرج قدح "نعم" مضى إلى غايته، وإن خرج "لا" عدل عن المضي فيه.

روى ابن الكلبي أنه كان أمام هبل في جوف الكعبة سبعة من القداح كتب في أولها صريح ، وفي ثانيها ملصق ، فإذا شكوا في مولود أهدوا له هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فإن خرج صريحًا ألحقوه بنسبه الأصيل ، وإن خرج ملصقًا دفعوه ، وإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرًا أو عملاً أتوا هبل فاستقسموا بهذه القداح عنده .

ولم يكن هبل وحده معبود العرب ، فقد انتشرت الأصنام في أنحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت وأشجار وحجارة مصورة ، وغير مصورة ، حتى قيل إنه كان حول

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني للدكتور حسن إبراهيم ج ٢ ص ٦٩ .

الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا[١] ويظهر أن السبب في وجودها أن قريشًا رأت أن تنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة ، حتى إذا أتوا مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم .

وكانت مناة أقدم هذه الأصنام ، وهي آلهة القضاء ، وكان العرب يسمون أبناءهم عبد مناة وزيد مناة ، وقد نصب هذا الصنم على ساحل البحر بقديد بين المدينة ومكة ، وكانت تعظمها الأزد والأوس والخزرج حتى أمر الرسول ﷺ علي بن أبي طالب بكسرها عندما خرج لفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة .

ومن هذه الأصنام : اللات بالطائف ، ومعناها الإله ، وقد عرفت في آثار تدمر والنبط ، وكانت صخرة مربعة أقيم عليها بناء ، وقامت على سدانتها ثقيف التي تشبهت بقريش سدنة الكعبة ، وبلغ من تعظيم العرب للات أن كانوا يسمون أبناءهم زيد اللات وتيم اللات .

ومن هذه الأصنام أيضًا : العزى ، وهي أحدث من مناة واللات وكانت تمثل في شجيرات في وادي نخلة عن يمين الذاهب من مكة إلى العراق، وبلغ من تعظيم العرب وقريش إياها أن كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى[٢].

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهم لترتجى كما كانوا يقولون : بنات الله وهن يشفعن إليه ، ولذلك فقد أنزل الله على رسول الله ﷺ :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ

(١) انظر خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام لمحمد بك غنيم ص ١٨٢ الطبعة الأولى .

(٢) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم ص ٧١ ج ١ .

ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ .

[النجم : ١٩-٢٣]

ومن معبودات العرب الوثنيين : سواع بأرض ينبع ، وقد قام بنو لحيان على سدانته ، واتخذت قبيلة كلب بدومة الجندل ودًّا ، واتخذت منجح وأرض جرش يغوث، واتخذت خيوان يعوق ، وكانت على ليلتين من صنعاء ، واتخذت حمير نسرًا . وكان قوم نوح يعبدون هذه الأوثان(١) التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

[نوح : ٢١- ٢٣]

وكان إلى جانب الوثنية في بلاد العرب نحل وديانات أخرى منها الصابئة ويعبد أتباعها النجوم والكواكب ، وقد انتشرت في بلاد اليمن وحران ، وأعالي العراق ، والزرادشتية نسبة زرادشت نبي الفرس القدماء ، وهي ديانة رمزية تقول بأن في العالم قوتين هما الخير والشر ويرمز لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة ، ويعتبر أتباع الزرادشتية النار لا على أنها العنصر المحرق بل على أنها مصدر النور الذي هو أساس الخير ، وكانت هذه الديانة سائدة في الفرس وفي شرق بلاد العرب وخاصة البحرين .

وقد انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ولا سيما في اليمن كما انتشرت في وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب حيث أقامت قبائل بني قريظة ، وبنى النضير ، وبني قينقاع ، وقد نشر هؤلاء اليهود في البلاد التي نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة من بعث وثواب وعقاب ، وكان لذلك أثره في الوثنية الحجازية

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٢٦ .

حتى أصبح أهل يثرب أسرع العرب إلى قبول الإسلام .

وكذلك انتشرت المسيحية في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال ، وفي بلاد اليمن في الجنوب ، وقد دخلت بلاد العرب بفضل جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية في القرن الرابع الميلادي .

وكان من أثر هذه العلاقات الوثيقة بين العرب والبيزنطيين أن تأثر العرب بالمسيحية إلى حد ما ، فانتشرت في الجنوب عن طريق الحبشة وفي الشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديار والصوامع.

وقد انقسمت النصرانية في ذلك الوقت إلى عدة فرق كما سبق القول . تسرب منها إلى جزيرة العرب فرقتان : فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة ، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام . وكان أهم مواطن النصرانية في بلاد العرب نجران ، وهي مدينة خصبة عامرة بالسكان ، يشتغل أهلها بالزراعة ويجيدون صناعة المنسوجات الحريرية ويتجرون في الجلود والأسلحة[1] .

* * *

(١) انظر فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ج ١ ص ٢٧- ٣٣ . وتاريخ الإسلام السياسي والديني للدكتور حسن إبراهيم ج ١ ص ٦٩- ٧٤ .

حقوق الإنسان

قبل الإسلام

مجتمعات منهارة القوى متهالكة وحقوق إنسانية ضائعة

أما من الناحية السياسية والاجتماعية للعالم في ذلك الوقت فقد قامت على التسلط الفردي المطلق في الحكم لأن إرادة الشاه أو القيصر كانت هي الأساس الذي تقوم عليه الدولة . وأما من الناحية الاجتماعية فكانت الطبقية سائدة : حاكم ومحكوم، ملك وعبيد ولذا كان يقوم نظام المجتمع على الحكم المطلق وبجانبه نظام الإقطاع ، وأرستقراطية الأرض ، وأرستقراطية الحكم ، وأرستقراطية المال ، وأصحاب الطواحين ، وأصحاب المعاصر ، والسيوف ، والناس طبقتان : عبيد أكثرية وهم الجماهير الشعبية ، وسادة أقلية وهم الأشراف أو الحكام ، ويتمتع الملك بالحق الإلهي المقدس[١] .

وقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة إلى الحد الذي نجده في قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة ، وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الإتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها، وانحصر سلطان القوي في اختطاف ما بيد الضعيف وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فأصبح هؤلاء في نظرهم كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوي الألباب ، ففقد بذلك

(١) التاريخ الإسلامي للدكتور الطيب النجار ص ٤ .

الاستقلال الشخصي وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن في العجماوات مع من يتيقنها[١] .

وقد كانت الحقوق الإنسانية تتحدد حسب طبقات المجتمع وكان هذا غالبًا ما تقرره الشرائع الدينية التي يؤمنون بها أو القوانين الطبيعية التي يخضعون لها .

*** الهنود :**

فالكتب المقدسة للهنود البرهميين تقرر التفاضل بين الناس بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى : وتقسمهم إلى طبقات أربع :

١- البراهمة ٢- الاكشترية ٣- الويشية ٤- الشودرا .

فالبرهمي : خلقه الله من فمه ، والكشتري : من ذراعه ، والويشا : من فخذه ، والشودرا : من رجله .

وتقسم هذه الأسفار المقدسة للهنود الوظائف الإنسانية بين هذه الطبقات بحسب منزلة كل طبقة منها وشرف الوظيفة نفسها وأهميتها فللبراهمة أرقى هذه الوظائف وهي الوظائف الدينية ، فهم وحدهم الذين يعلمون الناس أسفار الفيدا ، ويشرفون على المذابح والضحايا ، وهم وحدهم الذين لهم الحق في المنع والقبول ، أو في الإعطاء والأخذ .

وللكشتريين الوظائف الحربية وحماية الشعب والعمل على استتباب الأمن .

وللفيسائيين القيام على تربية الأغنام وفلح الأرض وشئون التجارة .

أما الشودرا أو المنبوذون فلم تعطهم الكتب المقدسة إلا وظيفة واحدة ، وهي أن يكونوا خدمًا للطبقات السابق ذكرها ، وهم فوق ذلك رجس ونجس ، فلا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهرتهم ولا الارتباط بهم بأية علاقة غير علاقة السيد بالمسود[٢] .

---

(١) رسالة التوحيد : ص ١٤٦ .

(٢) المساواة في الإسلام . للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ١١ .

وبناء على هذا التفكير الذي يرى أن الطبقات خلقها الله على هذا الوضع يصبح هذا التقسيم أبديًا، فهو من صنع الله، ولا طريق لإزالته وعلى هذا لا يرتفع أي شخص من أي قسم إلى قسم أعلى.

ولذا فلا يجوز لرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أعلى من طبقته لعدم الكفاءة، ولأن أولاده منها سيهبطون إلى مستواه[1].

*** اليونان :**

وكان قدماء اليونان يعتقدون أنهم شعب مختار قد خلقوا من عناصر تختلف عن العناصر التي خلقت منها الشعوب الأخرى التي كانوا يطلقون عليها اسم البربر، وأنهم وحدهم كاملو الإنسانية، قد زودوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من قوى العقل والإرادة على حين أن الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية مجردة من هذه القوى لا تزيد كثيرًا عن فصائل الأنعام.

وقد عبر عن وجهة نظرهم هذه كبير فلاسفتهم أرسطو، إذ يقرر أن الآلهة قد خلقت فصيلتين من الأناس: فصيلة زودتها بالعقل والإرادة وهي فصيلة اليونان، وقد فطرتها على هذا التقويم الكامل لتكون خليفتها في الأرض وسيدة على سائر الخلق، وفصيلة لم تزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالاً مباشرًا بالجسم، وهؤلاء هم البرابرة أي ما عدا اليونان من جميع شعوب الأرض، وقد فطرتها الآلهة على هذا التقويم الناقص ليكون أفرادها عبيدًا مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة.

فمن واجب اليونان إذن أن يعملوا بمختلف الوسائل على أن يردوا هؤلاء إلى المنزلة التي خلقوا لها وهي منزلة الرق. وكل حرب يشنها اليونان لتحقيق هذه الغاية حرب مشروعة تنبعث من طبائع الأشياء فتقوم طائفة الرقيق بالأعمال الجسمية التي زودت بالقدرة عليها وحدها ويتفرغ اليوناني لما عدا ذلك من الأعمال الراقية.

---

(١) انظر أديان الهند الكبرى. للدكتور أحمد شلبي ص ٥٣- ٦٠.

* الرومان :

وكذلك كان الشأن عند الرومان ، فكانت قوانينهم ونظمهم الاجتماعية تجرد غير الروماني من جميع ما يتمتع به الروماني من حقوق وتنظر إليه على أنه من فصيلة إنسانية وضيعة وأنه لم يخلق إلا ليكون رقيقًا للرومان[١] .

* اليهود :

وكان الإسرائيليون يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وأن غيرهم من الشعوب وضيع قد خلقهم الله ليكونوا أرقاء للإسرائيلين . ومن هنا يتبين لنا إلى أي مدى كانت اليهودية ديانة عنصرية ، فقد ورد في كتاب "المطالعات في الأديان العالمية" أن ديانة اليهود ذات ارتباط بشعب معين، كما يؤخذ من تسميتها اليهودية أو العبرية ، وهي لهذا تشبه الهندوكية "ديانة الهنود" في أنها ديانة مقفلة أي ليست من ديانات الدعوة ، وليست إلا تعبيرًا طبيعيًّا لشعب خاص وجزءًا من ثقافة اجتماعية لا تتقبل الغرباء ، والذي يقرأ أسفار اليهود كلها لا يجد فيها ما يدل على أن موسى أو بني إسرائيل كانوا مأمورين بدعوة غيرهم إلى ديانتهم ، وكل ما فيها منصب على كون الديانة اليهودية ديانتهم الخاصة ، وكون الرب ربهم الخاص[٢] .

ومع ذلك فإن الإسرائيلي غير ميال بطبعه إلى التدين فإلهه المال وهو في سبيل المال يرتكب كل جريمة والمعركة التي يشعلها ضد قوم أو أقوام ليست معركة مبدأ أو دين إنما هي معركة حوانيت ، ومن أجل المال أصبح اليهودي مرابيًا ماهرًا لأنه يرى أن إعطاء القرض مقابل مبلغ من المال هو أكثر العمليات التجارية راحة وأعظمها كسبًا فاشتغل بالربا حيث السرقة والابتزاز ، واشتغل بالسمسرة حيث الغش والتدليس ، وهو بعد الربا يتاجر في الأعراض كما يتاجر في الأسواق ، ومثل هذا لا يمكن أن

(١) انظر الحقوق والواجبات . للدكتور محمد رأفت عثمان ص ٢٥- ٨٠ الطبعة الأولى .
(٢) اليهودية ص ١٨٥ .

يلتقي مع دواعي الفضيلة .

جاء في تلمودهم : إذا خدع يهودي أحدًا من الأميين وجاء يهودي آخـر واختلـس من الغير بعض ما عنـده بنقـص في الكيـل أو زيـادة في الثمـن فعلـى اليـهوديين أن يقتسما الغنيمة التي أرسلها إليهما يهواه (الله) ولذا استحلوا أمـوال الشـعوب الـتي يدخلونها كما استحلوا أموال العرب قائلين : "ليـس علينـا في الأميـين سـبيل" ولا يغفر الله ذنبًا ليهودي يرد للأمي (غير اليهودي) ماله المفقود [1].

* * *

(١) التاريخ الإسلامي . للدكتور الطيب النجار ص ٩٢ .

حقوق الإنسان

عند العرب في الجاهلية

فإذا انتقلنا إلى العرب في جاهليتهم فسنجد أن القيمة الإنسانية المشتركة بين الناس جميعا كانت مفقودة ، وكانت تحدد الحقوق بينهم وبين غيرهم من الشعوب على أساس العنصرية الكاملة مثلهم كمثل الشعوب الأخرى التي سبق الكلام عليها.

كان العرب قبل الإسلام يعتقدون أنهم شعب كامل الإنسانية ، وأن الشعوب الأخرى التي كانوا يطلقون عليها اسم الأعاجم شعوب وضيعة ناقضة الإنسانية ، وقد ترتب على عقيدتهم هذه أمور كثيرة في علاقتهم بالشعوب الأخرى وفي أنظمتهم ومعاملتهم ، فمن ذلك أن العربي ما كان يقبل أن يزوج ابنته من أعجمي مهما كان عظيما ، ويرى في ذلك امتهانا لشعبه وإنسانيته وإنسانية ابنته .

ويروي المؤرخون أن أحد ملوك الفرس وهو كسرى أبرويز خطب حرقة بنت النعمان بن المنذر ، فرفض النعمان مصاهرته خضوعا لهذه التقاليد ، مع أن النعمان كان من ولاة كسرى والخاضعين لسلطانه وأن كسرى قد ثارت لذلك ثائرته ، فاستقدم عاهل العرب إلى المدائن (عاصمة فارس في ذلك الوقت) وتهدده بشتى صنوف العذاب ، فلم يزده ذلك إلا محافظة على تقاليد قومه ، فأمر بطرحه تحت أقدام الفيلة وتسوية معالم جسمه بالتراب . وظن كسرى أن ذلك سيوقع الرعب في نفوس العرب، فطلب حرقة إلى هانئ بن قبيصة الشيباني (من بني بكر) الذي أودعه النعمان ابنته قبل سفره إلى المدائن ، فلم يكن نصيبه منه بأجمل من نصيب صاحبه ، فأرسل كسرى جيشا عظيما ليوقع الدمار والعذاب على هذه الأمة العربية التي استأسدت في وجهه ، واحتجزت منه الفتاة التي يريد الزواج منها . فأثار هانئ بن

قبيصة معظم قبائل العرب واستنفرهم على قتال الفرس ، والتقت جيوشهم بجيوش الفرس في موقعة "ذي قار" الشهيرة التي انتهت بانتصار العرب على الفرس وتحررهم من سلطانهم(١).

ويروى كذلك أن أحد دهاقين الفرس وهم رؤساء الفرس وكبار أغنيائهم طلب أن يتزوج فتاة من باهلة- وهي بطن من أحط بطون العرب ، بل كان يضرب بها المثل في المهانة والذل والضعة- فأبى عليه ذلك أهلها على الرغم مما لدهاقين الفرس من سعة العيش ونعومة المال .

*** انحلال وتفكك :**

أما عن حقوق المجتمع العربي الداخلي نفسه فكانت تقوم على الطبقية والعنصرية ، ولم يكن المجتمع الجاهلي يستمتع بحرية الحقوق على النحو المفهوم ، أو الذي قد يخيل لبعض الأفراد لأول وهلة ، حقيقة إن العربي في جاهليته كان منطلقًا انطلاق الطير أو الريح ، ولكن شتان بين هذا الانطلاق ، وبين الحرية الإنسانية ، حرية الحقوق المرعية ، فحكومات الجاهلية كانت أشد استبدادًا بالأمر ، إذ كانت القدرة على الظلم تعني العزة والجاه في عرف السيد والمسود .

وكان في المجتمع الجاهلي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها وامتيازًا ، فترتفع عن الآخرين ، ولا تشاركهم في عادات كثيرة ، حتى في بعض مناسك الحج ، فلا تقف بعرفات ، وتتقدم على الناس في الإفاضة والإجازة ، وتنسئ الأشهر الحرم ، وكان النفوذ والمناصب العليا والنسيء من نصيب فئة مخصوصة يتوارثه الأبناء عن الآباء ، كما وجدت طبقات : سوقة وعوام ، وبجانب هذا النظام الطبقي فقد اشتدت العصبية القبلية التي جمحت وأدت إلى دوام انهيار الدماء .

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ٢/ ١٥٠- ١٥٦ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣/ ١١٣ وما بعدها، والمرجع السابق .

فقد كان المجتمع العربي في الجاهلية غير متماسك ويتميز بالتفكك والانحلال بجميع معاني هاتين الكلمتين ، فالعصبية للأسرة والقبيلة كانت قائمة ما قامت المصلحة الشخصية ، فليس ما يمنع الأخ من مهاجمة أخيه وقتاله ، فلم تمنع الروابط الأسرية التي كانت تقوم على العنصرية والدم من قيام الحروب المتصلة التي أورثتهم تراثًا من قصص البطولة والشعر تستطيع أن تستدل منه على صورة شعب مكون من قبائل ومجموعات قبلية تغلب عليها البداوة .

وكان البغاء سمة بارزة حتى على مرأى من آلهة الكعبة وأوثانها ، رغم ما يعتقده الجميع من أن آلهتهم قد مسخت رجلاً وامرأة بغيًّا داخل الكعبة فما زال القوم يمارسون البغاء داخل الكعبة وتحت أنوف آلهتهم [1].

وفي كثير من الأحيان كانت تكره النساء على البغاء وبخاصة الإماء منهم وقد أخبر القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [النور : ٣٣] .

وكانت علاقة الرجل بالمرأة عند العرب تحكمها نظرة لا تأخذ من المساواة بين النوعين في الاعتبار ، فليست المرأة إلا نوعًا أقل شأنًا من الرجل بسهولة يمكن أن يئدها والدها عندما يخبر أنه رزق بأنثى .

ولقد صور القرآن الكريم حالهم في هذه الناحية مبينًا ما كان يحدث لأحدهم إذا ما بشر بأن امرأته قد وضعت أنثى قال تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[النحل : ٥٨ ، ٥٩]

---

(١) المجتمع الإسلامي للأستاذين : عبد المنعم الشيخ وعمر زهران ص ٦٧ .

ولم تكن المرأة بوجه عام تلقى من أنواع التكريم التي يلقاها الرجل ، وإنما يكون من نصيبها أنها تكرم عند زوجها لأنها بنت كبير من كبرائهم أو أم لابنه الذي يحبه ، فأما أنها تكرم لمجرد انتسابها إلى جنس النساء فذلك كما يقول الأستاذ العقاد : "ما لم تدركه قط من منازل الإنصاف والكرامة ، وقد يحميها الأب والزوج ، كما يحميها الأخ والابن حماية الواجب المفروض عليه لكل ما في جواره أو كل ما في حوزته وحماه ، فيعاب على الرجل منهم أن يهان حرمه كما يعيبه أن يعتدي عليه في كل محمي أو ممنوع ومنه فرسه وبئره ومرعاه .

فإذا هانت المرأة فهي عارٌ يأنف منه أهلوه أو حطام يورث من المال والماشية ، ومن خوف العار يدفن الرجل بنته في طفولتها ويستكثر عليها النفقة التي لا يستكثرها على الجارية المملوكة والحيوان النافع ، وكل قيمتها بين الذين يستحيونها ولا يقتلونها في طفولتها أنها حصة من الميراث تنقل من الآباء إلى الأبناء ، وتباع وترهن في قضاء المنافع وسداد الديون ولا يحميها من هذا المصير إلا أن تكون عزيزة قوم تعز بما يعز عندهم من زمار وجوار "[1] .

ومع أن العرب كانوا يدينون بأن قوام الأسرة لا يتم إلا بالزواج والتناسل إلا أنهم لم يصلوا إلا نظام اجتماعي يحقق العدالة المنشودة ويسمو به إلى المكانة اللائقة والرابطة الروحية التي تناسب جلال هذه الصلة ولم يكن ذلك إلا في بعض الأحوال .

فقد كان من مأثور العرب في جاهليتهم أن يشترك عدد كثير من الرجال في بغي عن رضا منها فإذا حملت ووضعت أرسلت إليهم فيجتمعون عندها مرة واحدة فتلحق الولد بأيهم شاءت فينسب إليه ويسمونه "نكاح البغايا" .

وكان من مأثورهم أيضًا أن يقول الرجل لزوجته إذا طهرت من الحيض : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه– أي جامعيه– حتى تحملي منه وتفوزي بولد ، ويظل زوجها

(١) المرأة في القرآن . للأستاذ العقاد ص ٥٧ ، والحقوق والواجبات . للدكتور محمد رأفت عثمان ص ٣٢ .

معتزلا لها ولا يقربها بالجماع حتى يستبين حملها من ذلك الرجل الغريب عنه ، وكانوا يطلبون ذلك ممن اشتهروا بينهم بالكرم أو الشجاعة أو غير ذلك من الصفات التي كانوا يعتزون بها ويفخرون بمحامدها ، وكانوا يسمون هذا النكاح "بنكاح السفاح" أو "الاستبضاع" .

كما كان من عادتهم أيضا أن يتنازل الرجل عن امرأته لآخر في نظير تنازل الآخر له عن امرأته ويسمى "نكاح البدل" .

وأما في مكة ، فقد امتلأت بالظلم واستبد بها كبرياء الأشداء ، فهم يسرقون ويزنون ويجورون في القضاء ، وإذا أقرضوا الناس ضاعفوا الربا ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون .

وكانت بيوت اللهو تنتشر في كل مكان تعلوها رايات ، يؤمها الوافدون من أثرياء التجارة أو من أثرياء فتيان مكة يلهون بالنساء ويتجرعون الخمر وينتهكون حرمات وأعراض من أوقعهن الدين في براثن الأغنياء .

وأصبحت آلهة الكعبة سندا للأثرياء ، وأما الفقراء فهم يعانون بسبب فقرهم ، الحرمان والخوف والهوان ، وانفضت العلاقات بين الأفراد بعد أن أصبح أسلوب هذه العلاقات غير ملائم للزمن ، وأدرك الفقراء آن الآلهة إنما تحمي الظلم الذي يعانون منه وتسمح بأن يزدادوا فقرا ويزداد الأغنياء غنى .

يقول الإمام الجليل الشيخ محمد عبده في وصف حالة العرب قبل الإسلام : "وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبي نسائها ، وسلب أموالها ، وتسوقها المطامع إلى المعامع ، يزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا

من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصًا من عــار حياتــهن أو تنصــلاً مــن نفقات معيشتهن وبلغ الفحش منهم مبلغًا لم يعد معه للعفاف قيمة"[١].

وهكذا بقيت العقول في جميع أرجاء العالم أسيرة هذه الأوهام والخرافات حبيسة تلك العقائد المخزية حتى جاء حامل لواء الإسلام محمد ابن عبد الله ﷺ فأطلقها مــن أغلالها وقيودها ودعاها إلى التأمل والنظر في محراب الكــون الرحيــب ليصــل منــه إلى النتيجة الحتمية التي ترفع شــأنها وتهديـها إلى الحقيقـة الـتي تسـمو بـها إلى مسـتوى الإنسان الرشيد .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي إليه رسالته ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه مــن كشـف تلـك الغمـم الـتي أظلـت رءوس جميع الأمم ؟ بلى كان ذلك بمحمد بن عبد الله ﷺ ، ولله الأمر من قبــل ومــن بعد .

* * *

(١) رسالة التوحيد ص ١٤٨ .

مولد الهُدى والنور

*** نسبه ومولده ﷺ :**

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام[١] في ضوء التاريخ صبيحة يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول عام الفيل الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١م بناء على ما صححه المسعودي في مروج الذهب ، واختاره الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد ، وإن كان المشهور ١٢ ربيع الأول . فقد صحح المسعودي أن مولده ﷺ كان بعد قدوم الفيل بخمسين يومًا ، وكان قدوم الفيل لثلاث عشرة بقيت من المحرم سنة ٨٨٢ من عهد ذي القرنين وسنة ٤٠ من ملك كسرى[٢] .

وقد ولد النبي ﷺ بعد شهر من وفاة والده عبد الله من أشراف قريش والذي لم ينجب سواه ، وسمي بمحمد وهو اسم جديد في العربية ولم نعلم أحدًا سمي به قبله ، وقد خرج إلى الدنيا يتيمًا وفقيرًا من أبوين فقيرين في مالهما ، غنيين في جاههما وحسبهما ، فقد كان قصي الجد الرابع للنبي ﷺ سيد قومه وإليه انتهت جميع الأعمال المتصلة بالحجاج الوافدين لزيارة الكعبة من سقاية ورفادة وحجابة وندوة ولواء ، وهي أعمال تعطي لصاحبها الثراء والجاه والسلطان وقد ورث أولاده من بعده هذه الأعمال حتى تسلمها عبد المطلب بن هاشم .

وكان عبد المطلب يشتهر بالدعة والحكمة وأصالة الرأي ، وحرم على نفسه شرب الخمر ، وقد أحبه كل الناس لشخصيته الممتازة وحبه للخير ، ومن أعماله الخالدة أنه أعاد حفر زمزم نتيجة رؤيا صالحة رآها في منامه ، وزمزم هي بئر إسماعيل

(١) راجع في تمام نسبه الشريف : محمد نبي الرحمة . للأستاذ محمد محيي الدين ص ١٧ .
(٢) راجع التاريخ الإسلامي . للدكتور محمد الطيب النجار ص ٢٠ ورسالة التوحيد ص ١٤٩ .

ابن إبراهيم عليهما السلام وكانت قد ردمت مع تعاقب السنين .

وأرضعته ﷺ حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد أفصح العرب وهذه عادة مألوفة عند أشراف العرب حيث كانوا يدفعون بأولادهم إلى البوادي لما في ذلك من تعويد الطفل على احتمال الشدائد وخلق صفة الاعتماد على النفس منذ الصغر والبعد عن حياة الترف وتدليل الأهل ، وهذا الاتجاه هو الذي يلجأ إليه بعض الناس في تربية أولادهم بمدارس الحضانة الداخلية في العصر الحديث .

وقد بقي محمد بن عبد الله ﷺ مسترضعًا في بني سعد أربع سنوات في رواية : وخمسًا في رواية أخرى : ردته حليمة إلى أمه بمكة بعدها ، ولذا قال ﷺ : " .. أنا **أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر"** .

وقد تعرض ﷺ أثناء مدة الرضاعة في بني سعد لحادث شق الصدر الذي ثبت في روايات متعددة صحيحة ، وتحدث بذلك النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها كما ذكر البخاري .

ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وهي من أشراف قريش وهو في السادسة ، حيث كفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب بعد أن توفي جده وهو في الثانية .

فكأن الأقدار أرادت لهذا الطفل أن يكون يتيمًا حقًّا محرومًا من أقوى ينابيع العطف والحنان ، وهكذا يتفتح له منذ صغره مجال التفكير والنظر وتجعل منه الحوادث رجلاً قبل أن يبلغ مبلغ الرجال فيعتمد على نفسه لأنه اضطر أن يدخل ميدان التجارب القاسية في حياته الأولى وهذه من غير شك قد أهلته للغرض الذي أعد له .

وقد اعتمد النبي ﷺ في رزقه على ما يدره عليه رعي الغنم إلى أن بلغ خمسًا وعشرين سنة وقد كانت هذه الحرفة وهي رعي الغنم يزاولها أعرق العرب أصلاً وأطيبهم منبتًا ، وقد أكسبته ﷺ هذه الحرفة الخبرة العملية لتربية النفس وتقويم

الخلق وسياسة الرعية التي هي أقرب شبهًا بأحوال الغنم ففيها القوي الباغي المتطاول على حق الغير ، وفيها الضعيف ، وفيها الآكل ، وفيها الجائع ، والمستقيم والجامح ، وفيها تربية النفس على الحذر واليقظة وتحمل المسئولية ولذلك يقول النبي ﷺ إن رعاية الغنم من مستلزمات النبوة .

ثم كان سفره من الحجاز إلى الشام مع عمه أبي طالب وقد استغرقت هذه الرحلة بضعة شهور رأى فيها النبي ﷺ قبل بعثه مجتمعًا جديدًا من اليهود والنصارى، وقد التقى فيها بالراهب المسيحي "بحيرا" الذي بشر بنبوته عليه السلام وأخبر بعلامات النبوة فيه وقد جاء ذلك في إنجيل "برنابا" أحد حواري المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام على ما ذكره ابن الأثير في الكامل والمسعودي في الإشراف .

وقد كان من أهم الحوادث التي مرت بالنبي عليه الصلاة والسلام بعد رحلة الشام هي حرب الفجار التي حدثت بين قريش وهوازن سنة ٥٩٠م وقد حضرها النبي محمد ﷺ وكان يجهز النبل لأعمامه وهو في الرابعة عشرة من عمره وقد دامت هذه الحرب أربع سنوات .

وانتهت بانتصار قريش ثم معاهدة صلح بين الفريقين ، وقد تعلم النبي ﷺ فنون الحرب وأنواعها .

ثم كان سفره ﷺ إلى الشام في تجارة لخديجة من أشراف العرب والذي تزوجها فيما بعد وقام بهذه الرحلة وهو ابن خمس وعشرين سنة.

وقد مكنه هذا السفر إلى الشام وتكراره في الصبا والشباب من رؤية الحضر وخالط مجتمعًا جديدًا في ظل حكم الرومان ورأى ما لم يعجبه من الترف والمجون وفساد الخلق وسوء المعاملات واستغلال الحكام الأمراء لعامة الشعب الذي كان يكافح بالعرق في سبيل لقمة العيش الكفاف .

وإذا كان علماء الاجتماع يؤكدون أن عمليات التطوير لأي مجتمع لابد وأن

تسبقها دراسة شاملة لطبقات من المجتمع ، فإن ما رآه النبي ﷺ في مكة من مفاسد البداوة وفي الشام من مفاسد الحضارة يكون تدريبًا عمليًّا لإعداد المجتمع الجديد الذي تولى أمره بعد الرسالة وتصحيحه على أساس من الفهم العميق ، فإن رسالة محمد ﷺ لم تكن محدودة بجزيرة العرب بل كانت عامة إلى الناس أجمعين .

ثم كان موقف النبي الحكيم من الحجر الأسود الذي تنازعت القبائل على وضعه في مكانه في الكعبة بعد بنائها وتجديدها من أثر سيل جارف صدع جدران الكعبة وقد وصل بهم النزاع حتى كاد يفضي بينهم إلى حرب طاحنة . فأشار أحد رؤساء القبائل القرشية بتحكيم أول داخل عليهم فكان محمدًا ﷺ الأمين الذي لم يختلف عليه أحد فبسط ردائه ، ووضع عليه الحجر الأسود وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف وأمرهم برفعه حتى إذا حاذى موضعه من الركن أخذه بيده الشريفة فوضعه في مكانه .

لقد بلغ هذا الحل مبلغًا عظيمًا من البراعة حيث رد القبائل العربية إلى الوفاق والتآخي وعصمها من الوقوع في حروب قد يطول أمدها .

وقرر مع ذلك مبدأ المساواة ولفت أنظار العرب جميعًا إلى أن محمدًا ﷺ رجل يمكن الاعتماد عليه في أعظم مظهر في حياتهم الاجتماعية وهو النزاع الدائم فكان بحق حكمًا موفقًا ، وبهذا العمل أصبح زعيمًا منتظرًا لتأليف القلوب وتوحيد الكلمة وتنفيذ الحق وإقرار السلام ، وهذا ما أكدته حياته من البعثة النبوية .

لقد كانت الفترة التي قضاها من مولده إلى بعثته ﷺ أحداثًا وراء أحداث كلها تدل على نبوته ، كما أن التربية التي تربىها قد أحاطها الله برعاية خاصة وحفظه مما كان يقع فيه الشباب من سوءٍ أو لهو لا يليق بالنبوة وكانت تربيته حقًّا تربية إلهية تؤهله لحمل الرسالة التي أعد لها ، وهذا ما أكده النبي ﷺ بقوله : أدبني ربي فأحسن تأديبي .

وانطلق محمد ﷺ بعد الرسالة يهذب النفوس ويحرر العقول من ظلم الشرك والطغيان ويرسي مبادئ الحق والعدل على الدولة الجديدة التي تشمل المعمورة وتضم فوقها جميع الأجناس بلا تمييز .

"لا فرق بين أبيض ولا أسود ولا بين عربي وعجمي إلا بالتقوى"

كان محمد بن عبد الله ﷺ قبل بعثته يؤثر العزلة ويحب الخلاء وقد ألف النسك والعبادة ، فكان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه بالتفكر في الله ويتأمل عجائب الكون ، ويفكر في البعث والحساب والجنة والنار حتى إذا فرغ ما معه من الزاد عاد إلى بيت خديجة فتزود مرة أخرى لمثل ذلك التغيب .

وليس هذا مما يثير التساؤل عن عبادة النبي ﷺ لله ومعرفته بالجنة وبالنار وهو الذي لم يبعث بعد ، فإن الإنسان دائمًا- أي إنسان- يولد على الفطرة ، والفطرة هي الخلقة المستوية التي لا اعوجاج فيها ولا تحريف ، وهذه الفطرة إنما كانت تؤمن بالله الذي خلقها وأخلفها في الأرض تعمرها وتنعم بخيراتها فالدين الفطري يمكن تعبيره باللسان العصري بالدين الطبيعي ، ومعناه أن الإنسان يتأتى إليه بمحض ما وهب من القوى العقلية بدون إرشاد ولا تعليم .

ولذا قال (كانت) الفيلسوف الألماني المشهور : "الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوي إلا على قوانين ، أعني قواعد صالحة للجري عليها ، نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة من الأساطير والتعاليم الكهنوتية ، فالإنسان عبد الله الخالق الأقدس سبحانه على أكمل صورة من صور التنزيه والتوحيد ، وأما عبادة الأوثان فهي عرض طارئ اقتضاه ميل الإنسان إلى تحديد كل ما يحس به الإنسان إحساسًا مبهمًا ولذا فقد أخبر القرآن الكريم عن هؤلاء الذين كانوا يدافعون عن زيف عقيدتهم ويتمسكون بها مع بطلانها بعد أن دعاهم النبي ﷺ إلى ترك عبادتهم فقالوا:﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفًا** ﴾ [الزمر : ٣] .

وقد حافظ النبي ﷺ على هذه الفطرة ولم يخرج عنها بأي حال ولم تأت لنا شواهد التاريخ بحادثة واحدة تخالف ما تثبته للنبي ﷺ فقد حفظه الله سبحانه وتعالى على ذلك وقد رأينا فيما سبق كيف تم إعداده بشريًا ، ومن الله سبحانه وتعالى للمحافظة على هذه الفطرة (فطرة الله التي فطر الناس عليها) حتى حمل عبء الرسالة الإلهية رسالة التوحيد والتشريع "رسالة الإسلام" ، قال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

فإذا علمنا أن ديانة التوحيد كان لها أصل في شبه الجزيرة العربية وانتشرت في بعض منها- وإن حرفها أهلها- نتيجة انتشار اليهودية والنصرانية وهما أصلاً ديانتان سماويتان عرفنا أن النبي ﷺ لم يأت من فراغ .

وقد كان بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية ، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين ، ووجد بينهم أناس دعوا إلى دين توحيد جديد ، وإلى نبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، كانوا يعتقدون في البعث بوجود إله واحد يحاسب ويجازي الناس على أعمالهم من خير وشر ، ويطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون نسبة إلى حنيف ، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة آل عمران قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

ومن هؤلاء الحنفاء أمية بن الصلت الشاعر العربي المعروف وكان يأمل أن يكون النبي المنتظر ، فلما بعث النبي ﷺ حقد عليه .

ومنهم ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوج الرسول ﷺ ، وكان ورقة شيخًا كبيرًا يحفظ الإنجيل ، وهو الذي قال حين أخبرته خديجة بنزول الوحي على

الرسول ﷺ : يا ليتني كنت حيًّا إذ يخرجك قومك ثم قال : (وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا) .

ومنهم قس بن ساعدة الأيادي ، وكان أشهر قضاة العرب وفصحائهم وخطبائهم ، وقد سمعه الرسول ﷺ يخطب بسوق عكاظ على جمل له يحث العرب على ترك العادات المرذولة ويبشرهم ببعث الرسول ﷺ، وقد قال فيه الرسول ﷺ: **"يرحم الله قسًّا ، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمةً وحده"**[١].

* * *

(١) تاريخ الإسلام السياسي (نقلاً عن صبح الأعشى) ج ١ ص ٧٤ .

بعثته ﷺ

وعندما بلغ النبي ﷺ الأربعين من عمره نزل عليه الوحي يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وقد رأى جبريل عليه السلام الذي ظهر أمامه رأي العين يقظة لا منامًا وقال له جبريل : اقرأ ! فقال محمد ﷺ : ما أنا بقارئ - لست أعرف القراءة - فضمه جبريل ضمة قوية حتى بلغ منه الجهد وقال له : اقرأ ! فقال : ما أنا بقارئ ، فضمه كذلك ، ثم أطلقه وقال له في الثالثة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١-٥][1].

فكانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن .

*** الوحي يقظة لا مناما :**

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن الوحي الذي كان ينزل على محمد ﷺ إنما كان عن طريق الإلهام والرؤيا في المنام ومن هؤلاء المستشرق الأمريكي "روم لاندو" في كتابه الإسلام والعرب ، يقول "روم لاند" : إن محمدا رأى فيما يرى النائم ، وكان آنذاك في الأربعين من عمره ، الملاك جبريل يتحدث إليه ، وإنما حدثت هذه الرؤيا ورؤى تلتها في غار قرب مكة حيث كان من دأبه أن يستغرق في التأمل بعيدًا عن صخب الحياة الدينية ، وفي بادئ الأمر روع محمد بهذه الرؤى ، وخشي أن يكون الشيطان هو الذي تجلى له فيها ، ولكنه ما لبث أن انتهى إلى الإيمان - تشجعه على ذلك زوجه - بأن ما سمعه كان كلمات الله من غير ريب . اهـ

وهذا خطأ كبير لم يتنبه إليه الكاتب لأن جميع الروايات تتفق على أن الوحي كان يقظة لا منامًا . ولعل هذا الالتباس قد نشأ من الخلط وعدم التفريق بين ما قبل

(١) انظر : محمد الرسول الأعظم . للدكتور عبد العزيز عزام ص ٥٩ . وتاريخ الإسلام السياسي ص ٧٨ .

البعثة وما بعدها ، وقد جرت عادة المؤرخين علـى ذكـر الرؤيـا الـتي كـان يراهـا قبـل البعث فما رأى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ثم بعد ذلك يتكلمون عن فـترة الوحـي الحقيقية يقظة لا منامًا .

وللأسف فإن بعض الكتاب المسلمين يسيرون على نفـس المنـهج الـذي اتبعـه المستشرق "روم لاند" وإن كنت لا أشك في أنه يؤمن بما أومن به .

يقول صاحب كتاب : " محمد نبي الرحمة ورسول الهدى "(ص٢٧) : "وفي الليلـة المباركة (ليلة القدر) نزل جبريل عليه السلام وفي يده كتاب أو صحيفـة ودخـل عليـه في الغار ، وحياه تحية الحبيب للحبيب ، وقال له : اقرأ . . إلى أن قال : وعندئذ استيقظ النبي الكريم من نومه وقد انطبعت هذه الآية الكريمة في قلبه ثم نطق بها لسانه ، ولم يعرف المقصود منها ، وعاد مسرعًا إلى بيته ، حتى إذا ما استقر به المقام قال : "**دثروني . . دثروني**" وأخبر زوجته بما حدث فاستبشرت خيرًا وقالت لـه : "أبشـر يـابن عـم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، إنـي لأرجـو أن تكـون نـبي هـذه الأمـة ، والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتصدق الحديث وتـؤدي الأمانـة وتحمل الكلّ وتعين على نوائب الحق" .

إن ما ظهر لمحمد ﷺ من أمر الوحي كان عينًـا محسوسًـا يهديـه للخـير ، ويقيمـه على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ، ويمده بما يجب أن يقوله لأمته ليهديها إلى سواء السبيل ، وقد تم له فعلاً ما أراد ، فكان سببًا في خلق أمة كانت خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وإن ما طعن به بعض المستشرقين في حقيقـة الوحـي ، وسـبقهم بـه كفـار مكـة عندما أمر النبي ﷺ بتبليغ الدعوة إليهم زاعمين أنه صورة خيالية لا حقيقة لها ، خطـأ محض لأنه لا يمكن أن يكون الشخص الذي ظهر لمحمد ﷺ في الغار صـورة ذهنيـة لا حقيقة لها ، لأن الصور الهسـتيرية لا نتيجـة لهـا غـير إزعـاج المريـض وإقـلاق راحتـه

ووقوعه في الخبال أو الجنون .

ولأن الهذيان الهستيري لا يحدث إلا مصحوبًا بأغراض ثقيلة من التخبط والاضطراب والصياح والعويل ، وهذا لم يحصل من محمد ﷺ قط ، وإذا أفاق المريض بالهستيريا لم يذكر شيئًا مما قال وهذا على عكس حالة محمد ﷺ ، فقد وعى كل ما أوحي إليه وبلغه ما نقص منه شيء وما زاد بحالة لا مجال فيها لشك ولا موضع فيها لوهم .

ثم إن القرآن الذي أوحي به إليه أكبر شأنًا مما اشتغل به العالم الإنساني ، وفيه من النظريات ما لم يطف بخيال فيلسوف أو مصلح فكيف يتصور أن يكون مثل هذا نتيجة للخيال أو المرض إلا عند قوم طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون[1] .

وقد تلا الوحي الأول وحي آخر يأمره بتبليغ الدعوة في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر : ١، ٢] ، وكانت هناك فترة انقطاع للوحي بين الأول والثاني مدتها ثلاث سنين ثم تتابع الوحي بعد ذلك فكانت تبعته عظمى ، وعبئًا ثقيلاً ، لقد كلف أن يرد الناس عن ضلالهم ، وينزعهم من دين آبائهم ، ويدعوهم أن يحكموا في دينه عقولهم ، وما أشقها تبعة ، وقد زاد العبء ثقلاً أن بدأ تحمله في مكة ، وهي مركز العرب وبها سدنة الكعبة ، والقوام على الأصنام والأوثان المقدسة عند سائر العرب ، وهذه الأصنام في نظر مكة من العوامل التجارية الفعالة في حياتهم ، ومن الأسباب التي تدعو العرب من مختلف أنحاء الجزيرة إلى زيارة مكة .

فدعوة محمد ﷺ ضربة قاضية على المصالح في نظر سكان مكة فليس خطرها مقصورا على الناحية الدينية ، بل هددت مع ذلك موارد الثروة ، وأصبح موقف زعماء قريش الذين يسيطرون على القبائل العربية إبان موسم الحج موقفا ضعيفا مهددا بالزوال ، فجماعة هذه حالتها الاقتصادية والاجتماعية كان المفروض فيها طبعا

(١) الإسلام دين عام خالد . لمحمد فريد وجدي .

أن تحارب كل تعديل في نظمها الدينية والاجتماعية . هذه النظم المرتبطة إلى حد وثيق بحياتها الاقتصادية.

ومن هنا كان الهجوم على محمد ﷺ ودعوه من الكفار قاسيًا حتى اتهموه بالسحر والجنون وزادوا في إمعانهم بالإيذاء بعد الجهر بالدعوة .

كانت الدعوة في مبدأ أمرها مقصورة على التوحيد والاعتراف بالرسالة ورد الإنسان إلى فطرته الأولى ،وتكوين العقيدة السليمة التي يقوم عليها بناء الإسلام الشامخ الذي شاء الله له أن يكون خاتم الرسالات وأن يكون خاتم المرسلين .

ولقد كان جديرًا بأهل مكة أن يحسنوا مقابلة هذه الدعوة فإن تاريخ الداعي كان معروفًا عندهم قبل الدعوة وقد لقبوه بالأمين، ولكن قريشًا نسيت كل هذا في غمرة المعركة ، وطغت على رؤسائها غريزة الكبرياء والحمية .

وكانت الدعوة في أول أمرها سرية وكان أول المؤمنين بها زوجه خديجة ، ثم مولاه زيد بن حارثة وابن عمه علي بن أبي طالب وأم أيمن حاضنته ، وصديقه أبو بكر بن أبي قحافة من عظماء قريش الذي كان محببًا إلى الناس ، فقام هو الآخر بالدعوة إلى الإسلام فآمن به نفر كثير منهم عثمان بن عفان ، وقد اقتصرت الدعوة في هذه المرحلة على الأفراد واستغرقت الفترة السرية زهاء ثلاث سنين أسلم فيها نيف وأربعون رجلاً وامرأة .

* الجهر بالدعوة :

استمر الرسول ﷺ ثلاث سنين يدعو سرًّا إلى الإسلام كل من يثق فيه ويطمئن إلى استعداده النفسي لقبول دعوته، وكان هو وأصحابه في تلك الفترة يستخفون من قريش في صلاتهم وفي الدعوة إلى هذا الدين حتى نزل قوله تعالى :

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾

[الحجر : ٩٥]

وصدع الرسول ﷺ بالأمر ودعا قومه جهرًا فلما اجتمعوا إليه قال لهم : **"أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟"** قالوا : نعم ! ما جربنا عليك كذبًا ، قال النبي ﷺ : **"إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"** فقال أبو لهب : تبًّا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى في أبي لهب وزوجه قوله تعالى : **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ﴾** [المسد : ١- ٥] .

وهنا بدأت عداوة قريش لمحمد ﷺ ولمن تبعه تظهر ظهورًا جليًّا . روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس أن المشركين كانوا يضربون المسلم ويجيعونه ويعطشونه حتى كان لا يقدر على الجلوس من شدة الضرب ، ليرتد عن دينه ويقول آمنت باللات والعزى ، وكان بعض المسلمين يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فرارًا من أذاهم . وقد فرق الله بين هؤلاء وبين من ارتد عن الإيمان بقوله تعالى : **﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾** [النحل : ١٠٦] .

ولم يكن هناك مجال للمقارنة بين الخصمين في هذه الفترة فالمؤمنون قلة ولا يمتلكون من الوسائل المادية شيئًا إلى جانب قريش ، فكان من الطبيعي أن تتخذ الخصومة شكل اعتداء من جهة القوي ودفاع من جهة الضعيف وما دام النبي ﷺ مصرًّا على دعوته وقريش مصممة على دفعها فكان من الضروري أن يصل اعتداء قريش في الشدة إلى نهايته .

ولكن ماذا يصنع الاضطهاد في دين تمكن من نفوس أصحابه تمكن الغرائز . يقول جوستاف لوبون : إن مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ، ولكن ماذا ينفع الكيد في عقيدة استقرت في النفوس . لقد جعل هذا الاضطهاد من الثلة الصغيرة المسلمة كتلة قوية باتحادها وإيمانها ، وأثار في كثير من الأحيان عصبية أهل هؤلاء السابقين إلى الإسلام وعاطفتهم وجعل منهم مدافعين عن حملة راية الإسلام ، ووحد بينهم في

الآلام والآمال .

* أسلوب الدعوة :

إن المتتبع لسير الدعوة الإسلامية يرى أن النبي ﷺ قد اتخذ أساليب مختلفة لتوصيل الدعوة إلى أكبر عدد من الناس فهو يذهب إلى الأسواق ، ويقابل الحجاج الوافدين إلى مكة ويستقبل الوفود ويذهب إلى المناطق المجاورة .

ولم يعتمد النبي ﷺ في شرحه للدين على الغيبيات بل كان يقرع الحجة بالحجة ، بلفظ رصين ، ووجه باسم ، وفكر متقد ، وقلب رحيم ، ولذا يقرر بعض المستشرقين أن نجاح دعوة الإسلام يرجع أساسا إلى شخصية النبي ﷺ وسمو أخلاقه .

إن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد ﷺ في أداء رسالته وما كان لأتباعه من إيمان كامل في كل ما أنزل عليه من وحي ، واختيار الأجيال والقرآن ، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد ﷺ بأيما ضرب من الخداع ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق "ديني" - حتى ولو كان صاحبه دجالا عبقريا استطاع أن يعمر طويلا ، والإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف على ألف وأربعمائة فحسب ، بل إنه لا يزال يكتسب في كل عام أتباعا جددا ، وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلا واحدا على محتال كان لرسالته الفضل في خلق إمبراطورية من إمبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلا(١) .

كانت مهمة محمد ﷺ هي القضاء على النظام القبلي القوي الذي كان مسئولا عن اندلاع نار الحرب ، على نحو موصول تقريبا ، بين العرب والاستعاضة عنه بولاء الله يسمو إلى جميع الروابط الأسرية والأحقاد الصغيرة .

كان عليه أن يعطي الناس بوحي ربه قانونا كليا يستطيع حتى العرب المتمردون قبوله والإذعان له ، وكان عليه أن يفرض الانضباط على مجتمع عاش وازدهر على

(١) روم لاند (الإسلام والعرب) ص ٣٣ .

العنف القبلي والثأر الدموي لضروب من المظالم ، بعضها واقعي وبعضها متوهم، كما عليه أن يحل الإنسانية محل الوحشية ، والنظام محل الفوضى ، والعدالة محل القوة الخالصة .

استمرت الدعوة الإسلامية على هذه الصورة من الشرح والتحليل والإقناع من بداية النبوة حتى الهجرة إلى المدينة ، أي ثلاث عشرة سنة ، ولم يقتصر مجال النشاط النبوي على مكة فقط بل قد انتقل بها النبي ﷺ إلى خارجها ، فذهب بنفسه ومعه زيد بن حارثة إلى الطائف ليستعين بأهلها من ثقيف على خصومه من قريش ، فقابلوه مقابلة سيئة وحرضوا أولادهم على الاعتداء عليهما ، وأغروا به السفهاء والصبيان يسبوه ويطاردونه ويقذفونه بالحجارة حتى دميت عقباه .

ولجأ النبي ﷺ إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وجلس إلى ظل شجرة عندها ورفع رأسه إلى السماء يقول : "اللهم إني إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري !! إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك"(١) .

وكان ابنا عتبة ينظران إليه وإلى ما هو فيه من شدة الكرب ، فتحركت نفساهما رحمة وإشفاقًا من سوء ما لقي ، فبعثا إليه غلامهما النصراني (عداسًا) بقطف من عنب ، فلما وضع محمد ﷺ يده فيه قال : بسم الله . ثم أكل .

ونظر عداس دهشًا وقال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فسأله محمد ﷺ عن بلده ودينه ، فلما علم أنه نصراني من نينوى قال له : أمن قرية الرجل الصالح

(١) خاتم المرسلين . للدكتور يوسف الشال ص ١٩٨ .

يونس بن متى ؟ فسأله عداس : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال محمد : ذلك أخي كان نبيا وأنا نبي . فأكب عداس على محمد ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، وعجب ابنا ربيعة لما رأيا .

ويعلق أديب الإسلام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله على هذا الموقف بقوله : يا عجبا لرموز القدر في هذه القصة !

لقد أسرع الخير والكرامة والإجلال ، فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة .

وكان ابنا ربيعة من أعدى أعداء الإسلام وممن مشوا إلى أبي طالب عم النبي ﷺ يسألونه أن يكفه عنهم أو يخلي بينهم وبينه ، أو ينازلوه حتى يهلك أحد الفريقين، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنساني الذي جاء به الدين ، لأن المستقبل الديني للفكر لا للغريزة .

وجاءت النصرانية في أصالتها تعانق الإسلام وتقره ، إذ الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الأخوة الدم ، ونسب الأديان العقل ، ثم إن القدر رمز في هذه القصة بقطف العنب رمزا لهذا العنقود الإسلامي العظيم الذي امتلأ حبا ، كل حبة فيه قطر من الأقطار[1] .

وعلى الرغم من أن عشيرة النبي ﷺ لم تعتنق كلها عقيدة الإسلام فإنها لم تستطع الإذعان لضغط القرشيين ومحاولتهم اعتبار محمد ﷺ خارجا على القانون في نظرهم وإهدار دمه بسبب ذلك ، ولذا فإن الضغط ما لبث أن تعاظم واشتد ولجأت قريش وأشياعها إلى العنف ، واتفقوا فيما بينهم على مقاطعة بني عبد المطلب وعلى عدم مصاهرتهم أو الاتجار معهم ، وكتبوا ذلك في صحيفة وضعوها في داخل الكعبة ،

---

(١) وحي القلم ج٢ ص ٢٩ ، ٣٠ .

فاضطر بنو هاشم وبنو عبد المطلب من مسلمين ومشركين إلى الالتجاء إلى شعب أبي طالب بجوار مكة وعاشوا في عزلة تامة فلا بيع ولا شراء ، واحتملوا حصار قريش ثلاث سنوات وكان الطعام يذهب إليهم بالليل سرًّا من بعض العاطفين عليهم وقاسوا الآلام وشظف العيش في تلك السنوات .

ولكن عين الله كانت ترعاهم وتسهر عليهم ، فتبدد شمل أعدائهم ، وانفكت عرى أحزابهم ، وخرج من بينهم نفر قد صحّت ضمائرهم واستيقظت عقولهم وأحسوا بخطئهم في مقاطعة أبناء عمومتهم ، ومحاصرتهم في شعب أبي طالب مما أثر في حياتهم ، وأعلنوا عدم رضاهم عن تلك الصحيفة ، وقرروا تمزيقها وأخبروا أبا طالب بذلك ، فنقل بدوره النبأ إلى ابن أخيه محمد ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام: **"إن الصحيفة قد أكلتها الأرضة (العتة) ولم يبق منها إلا (باسمك اللَّهم)"** فلما تناولوها من مكانها داخل الكعبة وجدوا ما أخبر به النبي ﷺ حقًّا وصدقًا ، واهتدى بعضهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وعاد بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى ديارهم بعد حنين وشوق لها وسارت الدعوة في طريقها المرسوم كما أرادها الله[1] .

* * *

---

(١) محمد نبي الرحمة ص ٤٥ .

الهجرة إلى الحبشة

انتصار على أذى الكفار

وقبل مؤتمر الصحيفة لما رأى الرسول ﷺ ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم: **"لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه"** .

وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلاً وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان ، وكلهم من بطون قريش ، وكان فيهم عثمان بن عفان ، وروجه رقية بنت الرسول ﷺ ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر بن أبي طالب ، وامرأته أسماء بنت عميس وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأخوه خالد ، وقد أكرمهم النجاشي وأمنهم على حياتهم وأصبحوا في رغد من العيش .

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارًا أو قرارًا ، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشي ليخرجهم من بلاده ، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، ويقال إنه كان معهما معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة .

سار عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص إلى النجاشي ومعهما الهدايا وطلبا مقابلته ثم قالا له : "أيها الملك ! إنه قد ضوى (حضر) إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلم بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه ".

فقالت بطارقة النجاشي : "أيها الملك ! قومهم أعلم بهم عينًا واعلم بما عابوا

عليهم فأسلمهم إليهما فيردوهم إلى بلادهم وقومهم"[١] .

وكان النجاشي بعيد النظر ، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم فتقدم جعفر بن أبي طالب ، ووصف له حالة العرب قبل الإسلام وبعده وشرح له أن دعوة الرسول ﷺ ترمي إلى ترك الأوثان وعبادة الله والتخلق بمكارم الأخلاق فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟

فقال جعفر : نعم ! قال : فاقرأه عليّ ، فقرأ جعفر عليه سورة مريم (وفيها ميلاد المسيح) فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته وبكى أساقفته حتى ابتلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما أبد " [٢] .

وقال النجاشي للمسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي ، من سبكم عاقبناه فانصرفوا ، ورجع بعضهم إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة وأقام بعضهم في الحبشة إلى السنة السابعة للهجرة .

*** نقطة تحول في تاريخ الدعوة الإسلامية :**

وفي سنة ٦٢٠م عرف محمد ﷺ نقطة تحول في حياة دعوته عندما آمن بها جمع من الحجاج الوافدين من يثرب (التي سميت فيما بعد بالمدينة) ونشروها بين قومهم وجميع أهل المدينة ، وكان ممن دعاهم في هذه المرة ستة نفر من الخزرج ، وهذه هي بيعة العقبة الأولى .

ولم يطل بالنبي ﷺ الانتظار حتى بدت في الأفق تباشير الفوز آتية من ناحية يثرب من ثلاث طبقات : اليهود أصحاب الكتاب ، والأوس ، والخزرج الوثنيين ، وكان اليهود في ذلك الحين يتوقعون ظهور نبي جديد حيث أشارت كتبهم بأنه سيكون

(١) تاريخ الإسلام السياسي ص ٨٧- ٩٠ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦- ٣٦٠ .

من بين العرب فعلموا بأنه صاحب الدعوة فأرادوا أن يستظهروا به على الأوس والخزرج الوثنيين ، فسارعوا إلى الدخول في الإسلام ، وكذلك سارع كل من الأوس والخزرج بالدخول في الإسلام لأنهم سئموا عبادة الأوثان .

وفي سنة ٦٢١م تمت بيعة العقبة الثانية بين النبي ﷺ وبين وفد الأوس والخزرج وهو اثنا عشر رجلاً وفدوا على مكة في موسم الحج وبايعوا الرسول ﷺ على أن لا يشركوا بالله شيئًا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان ، ولا يعصوه في معروف ، وقاموا بنشر تعاليم الإسلام بين قومهم .

وفي سنة ٦٢٢م تمت بيعة العقبة الثالثة بين وفد المدينة المكون من ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين وكان أكثرهم من الخزرج والباقي من الأوس ، وكان نص هذه البيعة : "ألا يشركوا بالله شيئًا وأن يمنعوا النبيﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم متى قدم إليهم" . ثم جعلهم كفلاء على قومهم كفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، كما شملت البيعة أن يحاربوا من يحارب وأن يسالموا من يسالم هو منهم وهم منه .

ولا شك أن هذه المعاهدة هي أول حادث أعز الإسلام وانبثق منها أمل مشرق من ناحية يثرب لأن سكانها لم يكونوا يجهلون ما وراء هذه المعاهدة من الأخطار وما ستجره عليهم من عداوة قريش ومن والاهم وهم مرتبطون بهم منذ القدم بعلاقات تجارية .

وقد ذكر أحد الأنصار إخوانهم خلال العقد بأنهم مقدمون على مهمة ذات أخطار ومتاعب وأنهم سيستهدفون لحرب مريرة ضد الأحمر والأسود من الناس ، وأنها كما قال "مصيبة على الأموال والأشراف" ولكنها كما قال أيضًا "خير الدنيا والآخرة : فردوا عليه قائلين : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، ثم قالوا: وما بالنا يا رسول الله إن نحن وفينا ، قال : الجنة .

قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه على نحو ما بينا .

وبعد رحيل ركب المدينة ذاع خبر المعاهدة في قريش فهالهم وقوعـها كما هالهم كثرة الذين بايعوا ، فتعقبوا الركب ، فلم يلحقوه ، فزادت قريش في اضطهاد المسلمين حتى اضطرتهم إلى الهجرة من ديارهم إلى المدينة تاركين نساءهم وأموالهم[1] .

وكانت الهجرة من مكة إلى المدينة فاتحة التقويم الإسلامي وبداية دخـول النـاس في الدين الجديد أفواجًا .

* * *

(١) التاريخ الإسلامي للدكتور الطيب النجار ص ٣٦- ٣٩ .

الصفحات من ٤٩ الى ٦٤ غير موجوده بأصل الرواية

الهجرة إلى المدينة

وبعد الهجرة وطوال عشر سنوات غَذَّى المكيون حقدهم على محمد وأتباعه ، وكان لابد من خوض غمار معارك عديدة قبل أن يجيز الوثنيون للنبي ﷺ الحج إلى مكة .

وانتهت آخر مقاومة مسلحة قام بها المكيون باستسلامهم المطلق وبدخول محمد ﷺ مكة على رأس جيش من أصحابه ، وكان من أعماله الأولى في مكة تطهيره الكعبة من أصنامها جميعًا .

وباستسلام أهل مكة شرعت القبائل البدوية في بلاد العرب تدين بالولاء للرسول ﷺ وتخضع لمفاهيم الدين الجديد كما نص عليها القرآن الكريم دستور الإسلام ، وتدفق على مكة مندوبون من أرجاء شبه الجزيرة العربية كلها حتى أمست بلاد العرب جميعها تؤمن بتعاليم الإسلام[1] .

*** دعوة عالمية ورسالة إنسانية :**

ولم تكن رسالة النبي محمد ﷺ ودعوته لقومه العرب لإصلاح ما اعوج من عقيدتهم وسلوكهم فقط وإنما كانت لكل الناس في جميع أرجاء العالم فهو نبي الإسلام ، والإسلام خاتم الرسالات السماوية ومحمد حامل دعوته خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهكذا كانت إرادة الله وحكمته قال تعالى :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٧، ٨٨] .

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨] .

. . . ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

---

(١) راجع الإسلام والعرب ص ٣٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم

"سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين" يعني عامة مملكته : **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَن لاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران : ٦٤] .

* * *

وكتب الرسول ﷺ إلى ملوك اليمن هذا الكتاب :

إلى الحارث ومسروح ونعيم بني عبد كلال بني حمير :

"سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله ، وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته ، وخلق عيسى بكلماته ، قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى: الله ثالث ثلاثة ، عيسى ابن الله"

* * *

وكانت المعاهدات أحيانًا تدعم قبول دعوة الإسلام مثل بيعتي العقبة الأولى والثانية اللتين كانتا نواة الدولة الإسلامية في المستقبل بعد الهجرة.

هذه الكتب من النبي ﷺ والمعاهدات كانت تعبر عن روح العلاقات السياسية بين المسلمين وغيرهم كالروم والفرس والحبشة والغساسنة وأهل البحرين وعمان واليمن ونجران وحضرموت ، وكان الرسول عليه السلام يقبل هدايا أمرائهم ، مثل قبوله هدية المقوقس عظيم مصر فكان ذلك أصلا لتجويز فقهاء الإسلام قبول هدية أهل الكتاب في بلادهم الحربية[1] .

---

(١) آثار الحرب في الإسلام : ٢٩٨ .

*** أسلوب الدعوة الإسلامية بعد عهد الرسول ﷺ :**

وقد استمر حكام المسلمين في العصور التالية يسيرون في سياستهم مع الدول الأخرى على نحو ما سار عليه الرسول ﷺ فحدثت مكاتبات بين عمر وهرقل ، وتبادلوا الهدايا ، وكانت الرسل تتردد بينهم .

وفي العهد الأموي وجدت معاهدات ومكاتبات بين المسلمين وغيرهم ، رغم اعتبار بلادهم أرض حرب ، ففي عهد معاوية كان أغلب مناطق أرمينية يعتمد في خضوعه للعرب على معاهدات الأمان .

وعقد معاوية أثناء الفتنة الإسلامية هدنة مع الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني قبل اشتباكه مع عليٍّ رضي الله عنه رابع الخلفاء الراشدين سنة ٣٦هـ/ ٦٥٧م، وكذلك عقد صلحًا مع الروم في أول خلافته ، ويعتبر امتدادًا للصلح الأول سنة ٤٢هـ/ ٦٦٢م ، كما صالح الجراكمة ودفع لهم إتاوة .

وكذلك فعل عبد الملك بن مروان مع البيزنطيين حينما كان مشغولاً بتأديب الثوار في العراق ن فقد بعث في أول خلافته بالأموال والهدايا إلى ملك الروم جستنيان الثاني (٦٨٥- ٦٩٥) وصالح الجراكمة ورد إليهم أسراهم ، وفي سنة ٦٨٩ جدد الهدنة مع الامبراطور جستنيان الثاني .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز حدثت مفاوضات بين بيزنطة والعرب للبحث في مسألة فداء الأسرى ، وكتب عمر إلى ملوك ما وراء النهر وملوك السند يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم .

وفي العصر العباسي في الشرق والأندلس : كانت العلاقات السياسية بين المسلمين ومن عداهم تسير على النهج الإسلامي الأول وزادت عن ذلك بأن دخل الحكام المسلمون في علاقات سياسية هامة مع البيزنطيين ابتدأت منذ عام ٧٦٥ مع الخليفة المنصور فكان المبعوثون السياسيون على تبادل مستمر مع البلاد المسيحية

ليس فقط من أجل توقيع معاهدات صلح أو سلم ولكن أيضًا لتبادل الهدايا وأسرى الحرب ومن أجل مصالحات مختلفة أو لتسهيل التبادل التجاري فتبادل هارون الرشيد وشارلمان منذ عام ٧٩٧م المبعوثين والرسائل والهدايا وعقدت محالفات ودية وقد أقر ابن طيفور في كتاب المنظوم والمنثور تلك الرسالة التي وجهها الرشيد لشارلمان .

وحصلت مكاتبات سياسية بين المأمون وملك الروم توفيل تدل على احتفاظ البعثة المسلمة باعتزازها بالدين والدعوة له بطريق السلم .

وجرى الفاطميون والمماليك على سنة العباسيين حتى وصلت بعوثهم إلى أوروبا وآسيا الوسطى والشرقية .

وفي الحروب الصليبية كانت هناك صلات سياسية هامة بين الشرق والغرب وبالذات بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد فعقدت معاهدة بينهما سنة ١١٩٢م وكان العرب يرعون حرمة الرسل الفرنجة بخلاف ما كان يلقاه رسل المسلمين لدى الغربيين من إهانة وإيذاء وكانت هناك معاهدة في عهد صلاح الدين سنة ١١٧٣م بين مصر وجمهورية البندقية ثم بينها وبين جمهورية فلورانسا في عهد السلطان قايتباي سنة ١٤٨٨ وانتهى الأمر بعد الحرب الصليبية بإحداث بعثات قنصلية لتوثيق الروابط السياسية والتجارية بين البلاد الإسلامية والأجنبية ، وفي العهد العثماني تبادل الود بين خليفة المسلمين سليمان القانوني وملك فرنسا الكاثوليكي فرنسوا الأول وعقدا معاهدة التحالف والود المسماة بمعاهدة لافورية سنة ١٥٣٥م وعلى الجملة فإن العلاقات السياسية بين المسلمين وغيرهم لم تصل إلى الاتساع الذي عليه الدول الحاضرة وهي تمثل طابع تلك العصور الذي كان التعاون فيها بين الدول محدودًا ، وعلى كل حال فتلك العلاقات تصلح نواة جيلة لعقد صلات سياسية على نطاق أوسع ، كما آلت إليه العلاقات الدولية بعد عصر الخلفاء الراشدين بحسب

مقتضيات الظروف السياسية والإدارية ، وبالنسبة للعصر الحديث حيث زاد الاتصال السلمي بين الدول وكثرت المؤتمرات للتشاور في الشئون العامة المشتركة للدول الإسلامية وغير الإسلامية .

* * *

الحرب ضرورة
لإقرار السلم القائم على العدل

عرفنا أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هي السلم وليست الحرب، ولكن قد تعجز كل الجهود التي يبذلها المسلمون في سبيل تدعيم العلاقة السلمية بينهم وبين غيرهم لإفساح المجال أمام نشر الدعوة الإسلامية باعتبارها دعوة عالمية يجب أن تبلغ جميع الناس كما أمر الله ، ومن هنا كانت الحرب لابد منها في نظر الإسلام لحمل المعاندين على إفساح الطريق أمام هداية الإسلام ، ومع إقرار الإسلام لضرورة الحرب فقد أرادها حربًا عادلة في جميع الأحوال ووضع لها أسسًا لابد من مراعاتها حتى لا تكون حربًا ظالمة أو جائرة وهي : إعلان الحرب قبل بدء القتال بطريقة شرعية وذلك بعد رفض تبليغ الدعوة بطريقة سليمة .

*** إعلان الحرب :**

وإعلان الحرب للعدو في شريعة الإسلام أمر واجب وإلا كانت الحرب غير مشروعة في نظر الإسلام ويترتب عليها ضمان المسلمين لكل ما يترتب عليها من أضرار بالنسبة للعدو ، ورئيس الدولة الشرعي هو المسئول الأول عن إعلان الحرب ، ولا يستطيع أحد من الرعية أن يحارب المحاربين بمجرد رغبته وفق هواه ، وإنما لابد له من استئذان ولي الأمر ، حتى تكون العلاقات مع الأعداء سائرة وفق نظام معين وخطة سليمة القائد الأعلى للمسلمين أو من ينوب عنه في ذلك .

*** طرق بدء الحرب في الإسلام :**

وتبدأ الحرب في الإسلام بإحدى طرق ثلاثة معروفة في القانون الدولي الحديث وهي :

١- توجيه أعمال القتال مباشرة .

٢- الإعلان أو النبذ .

٣- إبلاغ الدعوة الإسلامية ، أو ما يسمى حسب اتفاقية لاهاي سنة ١٩٠٧ م بالإنذار النهائي .

١- توجيه أعمال القتال المباشر :

وهذا إذا كانت الحرب قائمة مع العدو بالفعل ، أو باشرها أولاً ، أو كان هناك عهد صلح نقضه العدو ، ولذا فيجوز للمسلمين حينئذ مباشرة الحرب ضد العدو الغادر والإغارة عليهم إذا كانوا ببلادهم دون حاجة إلى إنذار أو إعلان للحرب لأن العدو هو الذي كان السبب في نشوب القتال، ومن أمثلة ذلك من السيرة : أن رسول الله ﷺ حاصر بني قريظة بعد نقضهم العهد وقال حينما انصرف من وقعة الأحزاب : **"لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة"** .

على أن بني قريظة لم يكونوا مقاتلين فحسب ، بل كانوا مجرمي حرب ، وخائني عهد وتجار حروب ، ولو ظفروا بالمسلمين على أي وجه لقطعوهم إربًا(١) .

ولم ينذر الرسول ﷺ قريشًا يوم فتح مكة لبدئهم بالغدر والخيانة ، وقد أغار المسلمون على أهل خيبر وبني المصطلق بدون سابق إنذار لوجود حالة حرب معهم مستمرة ولم تتوقف .

٢- إعلان الحرب أو النبذ :

إذا كان العدو مقيمًا في بلاد المسلمين بعهد فنقضه فلا يجوز قتاله وإنما ينبذ إليه عهده ويبلغ مأمنه خارج البلاد تحرزًا من الغدر والخيانة لأن قاعدة المسلمين **"وفاء بعهد من غير غدر خيرٌ من غدر بغدر"**.

قال تعالى : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ** ﴾ .

وإبلاغ المأمن في الإسلام يشبه ما يسمى بإبعاد الأجانب غير المرغوب فيهم لضررهم على البلاد ، وهو تكليف الشخص بمغادرة الإقليم أو إخراجه منه بغير رضاه.

(١) راجع سيرة ابن هشام ص ٨٩- ٩٦ ، والكامل لابن الأثير .

والمأمن الذي أراده الإسلام للحربي هو كل مكان يأمن فيه الشخص على نفسه وماله وهو وطنه الأصلي أو أقرب بلاد الحرب من دار الإسلام .

٣- إبلاغ الدعوة الإسلامية أو الإنذار بالحرب :

وإبلاغ الدعوة الإسلامية وتخيير العدو بين الإسلام أو العهد بالصلح أو القتال كما هو معروف في الفتوحات الإسلامية شبيه بما يعرف في القانون الدولي في أوائل العصر الحالي بالإنذار النهائي ، وهو إخطار ترسله الدولة إلى دولة أخرى تضمنه طلباتها النهائية في صفة خاصة وتحدد فيه مدة معينة يترتب على فواتها وعدم إجابة المطلب اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين ، وسمي بذلك لأنه يتضمن الإذن بالقتال إذا لم تستجب مطالب معينة ، ويكون الإنذار إما كتابة أو شفاهة .

ومطالب الإنذار في الإسلام إما اعتناق الدعوة الإسلامية أو عقد معاهدة صلح لأمن جانب الأعداء وإطلاق حرية الدعوة ، أو الاحتكام إلى القتال بعد أن يتضح سوء نية العدو من رفضه الدعوة إلى السلم وسوء نيته وتربصه بالمسلمين .

وإبلاغ الدعوة الإسلامية إلى العدو أو الإنذار بالحرب واجب في الإسلام وذلك إذا لم تبلغه الدعوة أصلاً ، فقد روى أحمد والبيهقي والطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "ما قاتل رسول الله ﷺ قومًا قط إلا دعاهم" كما روى الجماعة من أصحاب الحديث إلا البخاري عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا . . ثم قال : **"وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، وادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وأن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم"**[١] .

(١) القسطلاني شرح مسلم ٦ / ٣٥٤ .

كما روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يوم خيبر : يا رسول الله : نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا أي مسلمين ، فقال ﷺ : **"على رسلك- أي تمهل- حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام فوالله لأن يهتدي بك رجل واحد خير لك من حمر النعم"**(١) .

*** الجهاد لتبليغ الدعوة :**

فإذا ما عجزت الوسائل السلمية وكان لابد من الحرب مع العدو فيجب على المسلمين أن يعدوا لها إعدادًا جيدًا حتى يتحقق النصر لهم أخذًا من قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠]

وكان هذا أمرًا واجبًا من الله حتى يتحقق التبليغ بالدعوة الإسلامية ومن هنا كان الجهاد من أجلها واجبًا في الإسلام وجزءًا من عقيدة المسلم يبذل في سبيلها حياته ويعتبر ذلك أسمى منزلة له في الحياة أخذًا من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

ثم إن المقاتل المسلم يعتبر نفسه في حياة دائمة رفيعة ومكانة عالية حتى بعد استشهاده في سبيل الله أخذًا من قوله تعالى :

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩- ١٧٠] .

وعندما تتجسد حقيقة الإيمان في الإنسان تتحول إلى شعلة تضيء له الطريق وقد

---

(١) صحيح البخاري ٦ / ١٠٩ .

تكون نارًا تلهب بألسنتها كل من يحاول النيل منه في هذه الطريق .

وليس هناك من يجسد هذه الحقيقة في الإنسان سوى الجهاد في سبيل الله وعندما يصل الإنسان إلى مرحلة الجهاد يكون حقًا قد وصل إلى مرحلة لا يتهيب فيها من الموت ، لأنه وسيلة إلى هدفه المنشود ، ومن أجل ذلك يقدم المجاهد على الموت بمقدار حرص الكافر على الحياة فتكون النتيجة في الغالب دائمًا حياة المجاهد وهلاك الكافر ، وهذا يتجسد في الحكمة التي قالها أبو بكر الصديق رضي الله عنه : **احرص على الموت توهب لك الحياة .**

ولكن المجاهد دائمًا لا يتمنى أن تصل به الأمور إلى هذه السبل وهو الحياة وطلب السلامة من الموت لما يراه فيه من المكانة العالية التي تنتظره عند الله .

ماذا بعد بذل النفس وارتخاص المال دلالة على اكتمال التدين وثبات الإيمان؟ **ولذلك فقد جعل الرسول ﷺ مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم الذي لا يفطر، والقائم الذي لا يفتر .**

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد ، فقال الرسول ﷺ : **"لا أجده"** ثم قال للرجل السائل : **"هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟"** فقال الرجل : ومن يستطيع ذلك يا رسول الله !

* * *

شريعة الحرب

وإذا اشتبكت الأمة الإسلامية في حرب فيتعين عليها أن تعلم أن الحرب هي الحرب ، ولا شريعة لها إلا رد العدو والعمل على كسره وإفنائه أو أن يكف عن عدوانه ، فإذا لم يكف عن العدوان أو يتوقف عن القتال فيكون كل مجهود يبذل في طريق القضاء عليه مشروعًا مبررًا ، ومن ذلك تضييق الخناق عليه وحصاره لا عن التجارة ومصادر رزقه فقط بل منعه من تعزيز قواته سواء بالسلاح أو الأفراد أو المؤن حتى يحمله ذلك على الاستسلام .

وقد طبق هذا المبدأ الحربي الرسول ﷺ بإتقان وحكمة ، ففي غزوة بدر حال الرسول ﷺ بين المشركين وبين ورودهم الماء ، ودار القتال حول حوض الماء الذي أتاه المسلمون ليشربوا منه دون المشركين وقد حاصر النبي ﷺ اليهود في أكثر من موقعة حتى نزلوا على حكمه ، وحاصر الطائف إلى أن اقتضته الظروف ففك الحصار عنهم وفي غزوة بني النضير عمد الرسول ﷺ إلى قطع نخيل اليهود ليحملهم بذلك على الاستسلام فاستسلموا وكان الفضل في ذلك لهذا الأسلوب الذي ألهمه الله لنبيه ﷺ ولم يكن للعرب به سابقة عهد ، وفي هذا يقول القرآن الكريم :

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وعلى هذا فإن ما تعمد إليه الدول الحديثة من محاولة تدمير منشآت العدو العسكرية كالمصانع ومحطات توليد الكهرباء وخزانات المياه والجسور ووسائل المواصلات ومحطات السكك الحديدية وإتلاف الآلات الزراعية وكل ما من شأنه تعطيل الإنتاج وشل يد العدو عن مواصلة القتال هو جزء لا يتجزأ من شرعة القتال وهو واجب ومشروع من ناحية المدافع عن نفسه .

*** تجنيب المدنيين ويلات الحرب :**

وكسر قوة العدو العسكرية هي التي يجب أن تكون هدف القتال الأول مهما اشتدت حرمته واحتدم أواره ، ولا يجب أن تتجه الجهود إلى غير هذه الوجهة بحال من الأحوال كأن ينكل بالأسرى أو يقتلوا أو يعذبوا أو تساء معاملتهم : ذلك لأنهم قد وقعوا في الأسر ولم يعد لهم سلطان ولا قوة ولا قدرة على الإيذاء فينبغي النظر إليهم في هذه الحالة بغير التي ينظر بها إلى الجندي المحارب الذي لا زال يحمل السلاح فلا حقد عليهم ولا محاولة للانتقام منهم بل الإحسان إليهم هو الواجب المطلوب وقد حث القرآن على ذلك في قوله تعالى :

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾.

وكل من لم يكن له صلة عن قرب أو بعد بقوة العدو العسكرية وتمكينه من الاعتداء كالنساء والأطفال والشيوخ والعجزة بل جميع من تطلق عليهم لفظة المدنيين في العصر الحديث هؤلاء جميعًا يتحتم عدم إيذائهم أو الانتقام منهم أو الإضرار بهم لأنهم لا خوف منهم ولا قدرة لهم على الاعتداء ولا استخدام السلاح .

وقد روى أنس في ذلك عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية قال للأمير : "**انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلاً ولا صغيرًا ولا امرأة** " وعن ابن عمر قال : "وُجِدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي ﷺ فنهى عن قتل النساء والصبيان" .

على أن هذا الإعفاء في الزمن القديم كان مقيدًا بشرط أن لا يكون لهذه العناصر صلة بالقتال أو العون عليه لا كما هو الحال في العصور الحديثة حيث أصبحت النساء تقوم بدور فعال في الحروب لا يقف عند حد قيادة السيارات ونقل المهمات وتولى المراسلات والعمل في مصانع الذخيرة والأسلحة ، بل يأخذ في بعض الأحيان صورة القتال الكاملة حيث تعمل المرأة على جميع الأسلحة المتقدمة ، وفي هذه الأحوال تسقط الحصانة المقررة لهؤلاء في الإسلام ويتعين معاملتهن معاملة المحاربين

على السواء ولا حرج في قتلهن إذا صادفهن المحارب وجهًا لوجه فقد روى ابن عباس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه مر بامرأة قتيل يوم الخندق فقال : **"من قتل هذه ؟ "** قال رجل : أنا يا رسول الله قال : **"ولم ؟ "** قال : نازعتني قائم سيفي . . . فسكت .

وفي موقعة حنين قتل دريد بن الصمة وهو شيخ فان لا قدرة له على القتال ولكنهم كانوا قد خرجوا به معهم ليستعينوا برأي مشورته وخبرته بالحروب فلم ينكر النبي ﷺ موته .

ففي كل حالة يتحول منها النساء والشيوخ والصبيان إلى عناصر محاربة أو مساعدة على الحرب تسقط عنهم الحصانة ، وكذلك في جميع الأحوال التي يمتزجون فيها بالمتحاربين ويصبح من المتعذر فصل بعضهم عن بعض أو الوصول للمتحاربين دون المساس بالآخرين ، ففي هذه الحالة يتعين عدم التفريق بين المتحاربين وغير المتحاربين ماداموا في صعيد واحد ، وتكون هذه هي إحدى ضرورات الحرب .

وسئل النبي ﷺ عن أهل الحرب من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريهم قال : **"هم منهم"** . وفي حصار الطائف عندما تحصنت خلف أسوار حصونها ، وراحت تقذف المسلمين من ورائها بالسهام والنبال ، استخدم الرسول ﷺ في حربهم والهجوم عليهم المنجنيق الذي كان يرمي بقذائفه داخل الأسوار فتقع بطبيعة الحال بين جميع من هم وراء الأسوار سواء كانوا محاربين أو كانوا نساءً وأطفالاً ، وليس المنجنيق إلا الصورة البدائية لمدافع الحصار الضخمة في عصرنا الحديث عندما تسلطها الجيوش على المدن التي توجد بها قوة العدو ، فيكون من وراء ذلك إصابة الكثير من المدنيين وهدم دورهم وهذه ضرورة لابد منها لكسر شوكة العدو .

ولذلك يتعين على الأمة التي تريد تجنب سكان مدينة من مدنها ويلات الحرب أن تعلن أنها مدينة مفتوحة ، فتخليها من كل قوة عسكرية أو كل ما يعين على الحرب أو يتصل بها من قرب أو بعد ، وفي هذه الحالة يكون من الواجب على الفريق الآخر أن يحترم هذه المدن وساكنيها فلا يتعرض لهم بسوء وإلا كان معتديًا

باغيا ، ويجب أن يخضع نظام المدينة المفتوحة للقاعدة العامة في الحرب وهي المعاملة بالمثل ، وإلا فلا يكون هناك احترام لهذه المدن ما دام الطرف الآخر لا يتبعها أو يحترمها[1].

*** لا يجوز التمثيل بقتلى العدو :**

الفضيلة لا تفارق الإسلام في كل شأن من شئونه حتى في الحرب التي هي قمة الصراع بين البشر وأقسى ألوانه ، ولذلك نرى شريعة محمد ﷺ لا تبيح أن يمثل بجثث القتلى من العدو حتى ولو مثل الأعداء بجثث شهدائنا .

ولقد حدث في معركة أحد أن مثل المشركون بجثث شهداء المسلمين انتقاما لغليلهم منهم في معركة بدر التي هزمهم المسلمون فيها ، ولما التمس المسلمون القتلى بعد معركة أحد رأوا المشركين قد مثلوا بجثثهم وكان تمثيلهم بحمزة عم النبي ﷺ شر تمثيل ، ولما رأى النبي ﷺ ذلك حلف ليمثلن بالمشركين عندما يظفره الله بهم فنهاه الله عن ذلك فكفر الرسول ﷺ عن يمينه وكان ينهى المسلمين عن التمثيل بجثث المشركين ، ولم يحصل التمثيل من أحد من المسلمين للمشركين في قتال [2].

*** وجوب معاملة الأسرى معاملة حسنة :**

وإن معاملة أسرى الحرب من الأعداء لابد أن تكون حسنة في شريعة الإسلام فإن الإسلام يوصي بحسن معاملتهم فلا يكون ما فعله أعداؤنا بنا في الحرب سببًا للانتقام من أسراهم لأن الكرامة الإنسانية محفوظة دائمًا في شريعة الإسلام .

وقد اعتبر الإسلام إطعام الأسير قربة من القربات التي يتقرب بها المؤمنون إلى ربهم ويظهر هذا واضحًا في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان : ٨] .

---

(١) الحرب على هدي القرآن والسنة . لأحمد حسين ص ٣٠ ، ٣١ .
(٢) انظر تفسير المنار ج ٤ / ١٠٥ ، والعلاقات الدولية . للدكتور محمد رأفت عثمان ص ١٢٧ .

وسل التاريخ يحدثك عما ضربه المسلمون من مثل مضيئة في التـاريخ الإنسـاني تطبيقًا لأوامر هذه الشريعة الإسلامية الرحيمة .

إن تاريخ المعارك يسطر بالنور ما كان يفعله المسلمون المنتصـرون مـع أسـراهم ، ولنرجع إلى تاريخ معركة بدر الكبرى لنلمس السمو في معاملة المنتصر لأسيره ، هذا السمو الذي لن تجده إلا عند أتباع محمد بن عبد الله ﷺ فقد أمر أتباعه يـوم بـدر أن يكرموا الأسرى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم في الطعام عند تناول الغذاء .

وقد نهى الإسلام عن إلحاق الألم بالضعفاء مـن أسـرى الحـرب ، ومـا حـدث في واقعة خيبر يوضح هذا المعنى ، إذ إنه في أعقاب حصار المسلمين لمدينة خيبر وانتصـار المسلمين على اليهود وقعت امرأتان يهوديتان أسرى في يد بلال بـن ربـاح رضـي الله عنه ، فلما أراد بلال تسليمهما إلى مركز القيادة الحربـي للإسـلام أخـذ طريقـه بـهما وسط الموقع الذي جرى فيه القتال بين المسلمين واليهود ، وما إن رأت المرأتان جثـث القتلى من اليهود حتى أثر ذلك في نفس إحداهما فأجهشت بالبكاء، فلما علم النـبي ﷺ بذلك لام بلالاً على ذلك لومًا عنيفًا قائلاً له : **"هل نزعت منك الرحمة يا بـلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما !؟"** .

* * *

أثر القيم والمبادئ الإسلامية في السلم والحرب

لا شك أن الرسالة التي أتى بها محمد بن عبد الله ﷺ كانت تهدف إلى إصلاح البشرية وخلق المجتمع الفاضل الآمن ولذا كانت الرسالة عامة شاملة راعت تنظيم حقوق الأفراد في السلم والحرب ولم يكن هذا خاصًّا بالمجتمع المسلم فقط بل قصد به المجتمع البشري كله على أساس أن دعوة الإسلام دعوة عالمية .

هذا وإن كان الأثر الفعلي المباشر لهذه الرسالة قد ظهر تنظيمه في المجتمع الذي بعثت في داخله أولا وهو المجتمع العربي ثم تأثيره في المجتمع الإسلامي خارج جزيرة العرب حتى عمت حضارته الشرق والغرب معا .

وقد أمدت الرسالة الإسلامية المجتمع بكل أسباب التكامل ، وكان فضل الإسلام على العرب عظيما ، إذ انتظموا في دولة واحدة ، وتآخوا بفضل ما دعا إليه الإسلام من نبذ العصبية وترك الشعور القلبي ، والبدء في حياة لا تعتمد على نسب أو جاه وإنما تعتمد على وحدة الخضوع لإله واحد وعلى مساواة قانونية مطلقة لا تشوبها شائبة .

*** مصادر تنظيم المجتمع الإسلامي :**

وكانت مصادر تنظيم المجتمع الإسلامي مصادر دينية أساسها القرآن الكريم ثم السنة النبوية وهي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته ويلي هذين المصدرين إجماع أهل الرأي والاجتهاد في الأمة ثم الاجتهاد الفردي وأهم ما فيه القياس ثم الاستحسان ، والاستصلاح والاستصحاب ، وقد تضافرت هذه المصادر جميعها على إحداث ثورة تشريعية قلبت المجتمع رأسًا على عقب وغيرته من سيئ إلى أحسن .

*** معجزته ﷺ هي القرآن :**

وكان القرآن هو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي والمعجزة الخالدة

للنبي ﷺ وهو الدستور الإسلامي الشامل لتنظيم المجتمع الإسلامي في كل المجالات وتنظيم علاقة المجتمع الإسلامي بالمجتمعات الأخرى في السلم والحرب ، وكانت المصادر الأخرى موضحة ومفسرة للمصدر الأول وهو القرآن .

فقد كانت فترة بعثة النبي ﷺ فترة تشريعية وكان كل فعل أو قول أو عمل منه إنما هو من الله لأنه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم:١- ٢]. حتى في مجال الحياة العادية البشرية الخاصة ، فإن كان على صواب أقره الله ، وإن كان على خطأ بين له الصواب لأن الإسلام كما قلنا إنما جاء ليستقيم الإنسان مع منهج الحياة منهج الفطرة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها .

*** يقول الأستاذ محمد عبده :**

وقد حوى القرآن من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ، نقب عن الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التي ألحقتها الأوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها .

حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم .

وقد شرع للناس أحكامًا تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة وقام بها العدل وانتظم بها شأن الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ، ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذي أودعته ، فقامت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الأمم السابقة والنظم الوضعية الحاضرة ، ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخضع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم .

وقد نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة والبلاغة ومع أنه قد نزل بلغتهم فقد عجزوا

أمام تحديه لهم على الإتيان بآية تماثل آية منه ، ومع طول زمن التحدي فقد أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهي والحكم الصادر عن الله على لسان الرسول الأمي الكريم ؟

قال تعالى في إثبات أمية محمد ﷺ : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

وقد جرت سنة الله في أنبيائه جميعًا أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة، وأن يسوق بين أيديهم من الخوارق ما يبين معالم اليقين وعناصر الاستقرار ودواعي الطمأنينة في النفوس .

وكانت معجزات الأنبياء شيئًا آخر غير الرسالات التي يبشرون بها ويدعون إليها ، فعصا موسى غير توراته ، وطب عيسى غير إنجيله .

إلا أن الله سبحانه شاء أن يجعل معجزة الرسالة الخاتمة شيئًا لا ينفصل عن جوهرها فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتابًا واحدًا ، وجعل من أصول الدعوة وأساليب عرضها البرهان الأكبر لدعوى الرسالة والسند الأعظم لصدق صاحبها .

فآي القرآن الكريم بما تضمنت من دساتير العدالة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، وبما تغرس في الطبائع من آثار الأدب والتربية والاستقامة ، هي هي رسالة الإسلام ومعجزته ، وأعظم ما في هذه الآيات أن الفطرة الإنسانية تجد فيها مجالها الحيوي الفذ وتجد في جوهرها المتنفس الطلق الحر ، أي أنها تجد ذاتها في آيات القرآن بعد أن افتقدتها آمادا طوالا .

ولقد كانت خوارق كثيرة على يد النبي ﷺ عاشها معاصروه وشاهدوها ، كما كانت معجزة الإسراء والمعراج التي عاشها الرسول ﷺ وحده بيد أنها كانت فيضا

من فيوضات الله عليه ، وإكرامًا منه سبحانه وتعالى ، ولم يكن القصد منها التحدي، وإنما كان برهان الرسالة هو القرآن الكريم ، كتاب الإسلام المعجز ، وخاتم الكتب لخاتم الرسالات والمرسلين .

وليس أدل على كونه خاتم الكتب لخاتم المرسلين بعد الآيات المنشورة فيه الواضحة كل الوضوح بهذه الحقيقة التي تستعصي على المماراة والمكابرة .

ليس أدل على ذلك برهانًا واقعيًّا من العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة الإسلامية اقتداء بنبيها ﷺ ، والتي بقي بها القرآن الكريم محفوظًا في حرز مصون إنجازًا لوعد الله الذي كفل بحفظه حيث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

ولم يصبه ما أصاب الكتب السابقة عليه من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال سبحانه: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ﴾ [المائدة:٤٥] أي بما طلب إليهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقًا للكتب التي أنزلت من قبله على النحو الذي أنزلها الله عليه قبل أن تمتد إليها الأيدي ، فكان القرآن مهيمنًا على هذه الكتب في أصالتها وجامعًا لما فيها من الحقائق زائدًا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان قائمًا مقامها وحالاً محلها ، ولم يكن شيء منها ليحل محله تلبية لحاجات الأجيال القادمة ، فقضى الله أن يبقى إلى قيام الساعة ، إذا قضى الله أمرًا يسر له أسبابه وهو الحكيم العليم .

ولقد علم الناس أجمعون علمًا لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة في القرن السادس الميلادي اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وغير مؤمن . لأن شهادة التاريخ المتواتـرة لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض .

وبراهين كون القرآن وحيًا من عند الله متضافرة ، وكل برهان يصلح وحده دليـلاً على هذه القضية حين يلقي طالب الحـق سمعـه وبصـره ويفـرغ فكـره مـن الأبـاطيل والعنت ، ولا يبتغي بنظراته إلا نشدان الحقيقـة والوصـول إلى الهـدف الطبيعـي دون التواء أو مراوغة . ومن الأمثلة على ذلك وهي كثيرة في القرآن الكريم:

تلك الآيات التي نزلـت في واقعـة (ابـن أم مكتـوم) تدمـدم بالعتـاب القاسـي والردع الزاجر للنبي ﷺ فتقول :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس:١-١١] .

فهذه الآيات تصحح وضعًا كان من النبي ﷺ في عتابٍ قاس .

وذلك الوضع من النبي ﷺ كـان يومًـا مشـغولاً بـأمر جماعـة مـن كـبراء قريـش يدعوهم إلى الإسلام حينما جاءه ابن أم مكتوم ، الرجل الأعمى الفقير ، وهو لا يعلم أن النبي مشغول بأمر القوم ، يطلب منه أن يعلمه مما علمـه الله فكـره رسـول الله ﷺ هذا ، وعبس في وجهه ، وأعرض عنه ، فنزلت الآيـات مقـررة حقيقـة القيـم في حيـاة الجماعة المسلمة . وبادرت بالعتاب للنبي ﷺ .

*** شهادة الجن على أن القرآن من عند الله :**

وقد شهدت الجن على أن القرآن الذي نزل على محمـد ﷺ إنمـا هـو مـن عنـد الله وحده بل وآمنت بذلك لأن رسالة محمد ﷺ عامة جاءت لهداية الإنس والجن معًا .

قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن : ١-٢] .

هذا وقد جاء في القرآن الكريم من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر في قوله سبحانه : ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم : ٢] .

وكالوعد الصريح في قوله تعالى :

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾

[النور : ٥٥]

وقد تحقق جميع ذلك والحمد لله وسجله التاريخ . بحروف من نور .

* * *

ماذا قدم القرآن

دستور الإسلام للناس ؟

١- في مجال العقيدة :

اجتث جذور الوثنية وطهر العقول من الأوهام الفاسدة فتخلصت النفوس من عبادة الجماد والحيوان والإنسان ، وصار الإنسان بالتوحيد عبدًا خالصًا لله حرًّا من العبودية لكل مخلوق سواه فارتفع شأنه وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين وأصبح من الواجب عليه أن يقول ما قاله سيدنا إبراهيم: **﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [الأنعام : ٧٩] .

وكما قال محمد ﷺ بأمر ربه : **﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** [الأنعام:١٦٣] .

وعلى هذا المبدأ سار المسلمون في معاملاتهم السلمية والحربية مع أهل الأديان الأخرى فكانوا يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وكانوا في مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ويحترمون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم ، وفي هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في معاهدته مع أهل بيت المقدس عقب فتحه له : [**هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم ولكنائسهم ولصلبانهم . . لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم**] .

وجاء في معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر بعد فتحه لها : [**هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يبدل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص**] .

*** حرية المناقشة الدينية مكفولة للجميع :**

وفي هذا يقول القرآن : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وهذا الخطاب لرسول الله ﷺ، وفي خطاب المؤمنين: ﴿ **وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

وفي مخاطبة أهل الأديان الأخرى يقول القرآن :

﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة : ١١١] .

﴿ **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾

[الأحقاف : ٤]

بل يغري الكفار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم فيتظاهرون جدلاً أنه على حق وأنهم على باطل ، فيقول :

﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ [سبأ : ٢٤] .

وكان الخلفاء من بني العباس وغيرهم يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون ينتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق فيتناقشون في شئون العقائد ، ويوازنون بين الأديان كل يدلي بحجته ويبين رأيه في شئون العقائد ، ويوازنون ولم يكن الخلفاء يحتملون هذه المناقشات فحسب ، بل كانوا كذلك يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ويشتركون فيها بأنفسهم (١).

وإنما قرر القرآن حرية المناقشة الدينية لأنه يريد إيمانًا عن اقتناع لا عن تقليد ولذا دعا إلى التفكر والتدبر ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ**

(١) الحرية في الإسلام . للدكتور علي عبد الواحد .

وَالنُّذُورُ عَن قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ١٠١] .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَاأَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَ نَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وإن المرء لا يكون مؤمنًا إلاَّ إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به ، فمن ربي على التسليم بغير عقل وعلى العمل ولو صالحًا بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم ، فيعمل الخير لأنه يفقه الخير النافع المرضي لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته[1] .

٢- في مجال الحقوق والواجبات :

وفي مجال الحقوق والواجبات قرر القرآن المساواة الكاملة بين الناس جميعًا لا فرق بين حاكم ومحكوم ولا بين أمير وحقير ، ولا بين مسلم وذمي الكل أمام عدالة القرآن وعدالة الإسلام سواء .

وقد قرر الإسلام مبدأ المساواة بين الناس في أكمل صوره وأمثل أوضاعه واتخذه دعامة لجميع ما سنه من نظم لعلاقات الأفراد بعضهم مع بعض ، وطبقه في جميع النواحي التي تقتضي العدالة الاجتماعية وتقتضي كرامة الإنسان أن يطبق في شئونها ، فأخذ به فيما يتعلق بتقدير القيمة الإنسانية المشتركة بين أفراد بني البشر جميعًا ، وأخذ به فيما يتعلق بالحقوق المدنية وشئون المسئولية والجزاء والحقوق العامة ، كحق العمل ، وحق التعليم والثقافة ، وأخذ به فيما يتعلق بشئون الاقتصاد ، وأقامه في كل ناحية من هذه النواحي الثلاث على قواعد واضحة متينة تكفل حمايته من العبث والانحراف ، وتتيح له تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من خير للأفراد والجماعات .

(١) رسالة التوحيد .

*** المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة :**

وقد حرص الإسلام على تقرير هذه المساواة في أكمل صورها وجعلها من العقائد الأساسية التي يجب أن يدين بها كل مسلم ، فقرر أن الناس سواسية بحسب خلقهم الأول وعناصرهم الأولى ، وأن ليس ثم تفاضل في إنسانيتهم وإنما يجري التفاضل بينهم على أسس خارجة عن الإنسانية نفسها على أسس كفاياتهم وأعمالهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ومجتمعه والإنسانية جمعاء . وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ويقول عليه الصلاة والسلام مقررًا هذا المبدأ في أقوى العبارات وأبلغها دلالة في خطبة الوداع التي جعلها دستورًا للمسلمين من بعده : **"أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضلٌ إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللَّهم فاشهد ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب"** .

وقد سمع مرة سول الله ﷺ أبا ذر الغفاري يحتد على بلال الحبشي وهو يحاوره ويقول له : يابن السوداء فغضب عليه السلام غضبًا شديدًا وانتهر أبا ذر وقال : **"طف الصاع طف الصاع"** ثم اتجه إلى أبي ذر وقال له : **"إنك امرؤٌ فيك جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو عمل صالح"** فوضع أبو ذر خده على الأرض وأقسم على بلال أن يطأه بقدمه حتى يغفر الله له زلته هذه ويكفر عنه ما بدر منه من خلق الجاهلية الأولى .

*** المساواة في حق التعلم والثقافة :**

أعطى الإسلام كل فرد الحق في أن ينال من العلم والثقافة ما يشاء وما تتيحه له

إمكانياته وظروفه ، ويتيحه استعداده ، بل جعل ذلك فرضًا عليه في الحدود اللازمة لأمور دينه وشئون دنياه في جميع المجالات في التشريع ، والطب ، والفلك ، والهندسة ، والكيمياء والطبيعة ، والحساب وغير ذلك وفي هذا يقول الرسول عليه السلام : **"طلب العلم فريضة لى كل مسلم"** ولذا فقد كانت مكانة العلماء عند الله مكانة سامية تليق وما حبسوا أنفسهم عليه من علم يؤدي إلى معرفة الله وخدمة الفرد في المجتمع ، قال تعالى : **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** [فاطر : ٢٨] .

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ ﴾ [الزمر : ٩] .

وقد جاءت الآيات الأولى نفسها التي نزلت على الرسول ﷺ من الكتاب الكريم منطوية على تعظيم للعلم ووضعه في المكانة الأولى من نعم الله تعالى على الإنسان ، ومن دلائل عظمته وقدرته : **﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمْ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [الزمر : ٩] .

وقال النبي ﷺ : **"العلماء ورثة الأنبياء"** .

وقد فهم المسلمون الأوائل حقيقة الإسلام في مجال العلم وأنه ليس مقتصرًا على العلوم التي تتعلق بالعقيدة بل كانت نظرتهم أعمق حسب ما أمرهم القرآن في أول آية نزلت على الرسول ﷺ :**﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . . ﴾**.

وبفضل هذا الفهم الحسن نبغوا في مختلف العلوم وسجل لنا التاريخ العدد الكبير منهم الرجال والنساء على حد سواء ولا تزال كتبهم ومراجعهم شاهدة عليهم وعلى جهدهم بل كانت رائدة الحضارة والمدنية للحضارة الأوروبية الحاضرة في جميع المجالات ، لأن المنهج التجريبي ، وهو المنهج العلمي الحديث في أوروبا إنما يرجع فضل ابتكاره إلى المسلمين أنفسهم .

فمن المعروف علميا أن المنهج العلمي الحديث في أوروبا إنما يرجع فضل نشره وذيوعه فيها إلى "روجر بيكون" ، "روجر بيكون" هذا درس اللغة العربية والعلوم

العربية في مدرسة أكسفورد على علماء العرب في الأندلس بعد فتحهم لها.

يقول الأستاذ بريفولت في كتابه بناء الإنسانية : [وليس لروجر بيكون الحق في أن ينسب إليه الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة][1].

ومن هؤلاء المسلمين الذين نبغوا في العلوم المختلفة جابر بن حيان وأبو بكر الرازي ، وابن سينا ، وعمار الموصلي ، وابن النفيس ، وابن البيطار ، والخوارزمي ، وابن الهيثم .

وقد نبغ ابن سينا في الكيمياء ، والطب ، واشتهر ابن البيطار في الصيدلة .

*** المساواة في حق العمل :**

أعطى الإسلام كل فرد الحق في أن يزاول أي عمل مشروع يروق له ، وتكون لديه الكفاءة للقيام به .

وقد حث الإسلام على العمل أيًا كان نوعه ما دام داخلاً في نطاق الأعمال المشروعة ، وأمر به وأعلى من شأنه ، قال تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾** [الملك : ١٥].

ويأمر القرآن المؤدين لصلاة الجمعة ألا يطول مكثهم في المسجد وأن ينصرفوا إلى أعمالهم بعد انتهائهم من أداء الفريضة ، قال تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة : ٩-١٠] .

وقد أجاز القرآن مباشرة أعمال التجارة وما إليها في أثناء أداء مناسك الحج ، قال

---

(١) محمد رسول الله . للدكتور عبد الحليم محمود ص ٩٠ .

تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

وقد روي أن النبي ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك استقبله معاذ بن جبل فصافحه ، فأحس النبي ﷺ خشونة في يده فقال له : [كبنت يداك يا معاذ] أي خشنت وغلظت، فقال معاذ : نعم يا رسول الله لأني أحترث بالمسحاة وأنفق منه على عيالي ، فقبله النبي ﷺ أو قبل يده في بعض الروايات وقال: [تلك يد يحبها الله ورسوله] وفي رواية أخرى : [تلك يد لا تمسها النار] .

ولذلك قال النبي ﷺ **"ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من عمل يده"** .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يشتغلون بأيديهم في شئون التجارة والزراعة والحرف بجانب اشتراكهم في الشئون الحربية والدعوة إلى الإسلام ، وكان لكل منهم مطلق الحرية في مزاولة أي عمل مشروع يروق له ويجد في نفسه الكفاية للقيام به ، وقد أقرهم النبي ﷺ والقرآن على ذلك .

بل إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن تولى رئاسة الدولة الإسلامية كأول خليفة للمسلمين بعد موت رسول الله ﷺ وفي اليوم الثاني للخلافة مباشرة وجد وعلى رأسه أثواب متجهًا بها في الصباح الباكر إلى السوق ليتجر فيها حيث كانت حرفته قبل الخلافة ، فلقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبو عبيدة بن الجراح فقالا: كيف تصنع في هذا وقد وليت أمور المسلمين ؟ فقال : فمن أين أطعم عيالي ؟ قال : يفرض لك في بيت المال ، ففرض له ما يسد حاجته وحاجة من يعولهم حتى يتفرغ لشئون الخلافة .

ولذا فقد كان العمل خير عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله لينال الدرجات العلى ، روى ابن عباس رضي الله عنهما أن قومًا قدموا على الرسول ﷺ فقالوا : إن

فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر ، فقال : أيكم يكفيه طعامه ، فقالوا : كلنا ، فقال عليه السلام : **"كلكم خير منه"** .

وبالنسبة للمرأة فقد أباح لها الإسلام كل عمل تقدر عليه ولا يتعارض مع الحفاظ على كرامتها وأنوثتها ، فقد كانت النساء في عهد النبي ﷺ يقمن بكثير من الأعمال في داخل بيوتهن وفي خارجها ، وإليك مثلا أسماء بنت أبي بكر ، وهي أخت عائشة أم المؤمنين ، فقد كانت تقوم بكثير من الأعمال اللازمة لزوجها وأسرتها في داخل بيتها وخارجه وفي ذلك تقول هي نفسها : [كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكنت أسوس فرسه وأعلفه وأحتش له ، وكنت أخرز الدلو وأسقى الماء وأحمل النوى على رأسى من أرض له على ثلثي فرسخ] .

بل لقد اضطلعت المرأة المسلمة ببعض شئون الحرب نفسها في عهد رسول الله ﷺ .

فلم تخل غزوة من غزواته ﷺ من نساء يقمن بمساعدة الرجال وشئون الإسعاف للجرحى ، ومن بين هؤلاء من حفظ لهن التاريخ مواقف بطولية مجيدة كالسيدة أمية بنت قيس الغفارية التي أكبر الرسول عليه الصلاة والسلام حسن بلائها في غزوة خيبر شوال سنة ٦ هجرية فقلدها بعد انتهاء هذه الغزوة قلادة تشبه الأوسمة الحربية في عصرنا الحديث وظلت هذه القلادة تزين صدرها طول حياتها ، ولما ماتت دفنت معها عملا بوصيتها[1] .

* * *

(١) المساواة في الإسلام ٢٣ ، ٤٣ .

الإسلام والحرية السياسية

يقصد بالحرية السياسية أن تكون الأمة نفسها مصدر السلطات ومن أهم الحقوق التي يجب أن تمنحها الأمة حتى تكون مصدرًا للسلطات أن يكون لأفرادها عن طريق مباشر أو عن طريق ممثليهم الحق في اختيار الحاكم والحق في مراقبته ومحاسبته على أعماله(١) .

ومن هنا كان هذا الحق مكفولاً لكل فرد بالترشيح والانتخاب لتولي الوظائف العامة في الدولة(٢) ، سواء كانت نيابية أو تنفيذية .

ولما كانت الحياة السياسية في الدولة تختلف من عصر إلى عصر حسب البيئة والظروف التي تحيط بالناس والمشاكل التي تجد فلم نجد في القرآن ولا في السنة نصوصًا صريحة في إقرار حق اختيار الحاكم أو مراقبته بل ولا طريقة ممارسة الحكم، وإنما وجدنا في الشريعة الإسلامية مبادئ واضحة قد أقرت في هذا الشأن .

وذلك أن الشريعة لا تستمد أحكامها من الكتاب والسنة فحسب وإنما من مصادر أخرى أهمها الإجماع .

وقد انعقد إجماع الصحابة في عهد الخلفاء الأربعة الراشدين على أحكام صريحة في صدد الحرية السياسية وسار عليها نظام الحكم في العالم الإسلامي(٣) .

ولذا يكون من الخطأ فيما ذهب إليه بعض الباحثين المحدثين إذ قرر أن الشريعة الإسلامية لم تعرض لنظم الحكم وأن هذه النظم ليست من أمور الدين في شيء وإنما هي من الأمور الدنيوية التي ترك الإسلام للناس حرية التصرف فيها معتمدًا في ذلك

---

(١) انظر الحرية في الإسلام . للدكتور عبد الواحد وافي ص ٩١ طبعة ٦٨ .
(٢) الحقوق والواجبات للدكتور رأفت عثمان الطبعة الثانية ص ٤٨ .
(٣) الحرية في الإسلام . للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٩٢ .

على أنه لم يرد في صددها نص صريح في القرآن ولا في السنة"[١].

لأن الصحابة رضوان الله عليهم قد انعقد إجماعهم على أحكام واضحة كل الوضوح في نظام الحكم وما يرتبط به من حقوق وواجبات .

*** حق الأمة في اختيار الحاكم :**

يتبين مما استقر عليه الإجماع في عهد الخلفاء الراشدين أن الإسلام يعطي الأمة الحق المطلق في اختيار حاكمها الأعلى المشرف على جميع سلطات التنفيذ وهو الخليفة أو الإمام .

غير أن طريقة الاختيار تختلف بعض الاختلاف في شكلها عن الطريقة التي تسير عليها الجمهوريات الديمقراطية الحديثة وإن اتفقت معها في جوهرها ، ففي بعض هذه الجمهوريات يتم اختيار رئيس الدولة عن طريق الاستفتاء العام فيشترك في هذا الاختيار جميع أفراد الشعب المكلفين الراشدين ، وهذا هو ما يجري عليه العمل في الجمهوريات الرياسية .

وفي بعضها الآخر يتم اختيار رئيس الدولة عن طريق البرلمان ، وهو السلطة التشريعية التي اختارت الأمة أفرادها ، وهذا هو ما يجري عليه العمل في الجمهوريات البرلمانية ، أما الإسلام فيعهد باختيار الحاكم إلى أهل الحل والعقد وهم أئمة المسلمين وفقهاؤهم ورؤساء عشائرهم وأمراء أجنادهم وذوو الشوكة والمكانة والرأي فيهم ، وهؤلاء هم الممثلون الحقيقيون للأمة والمعبرون تعبيرًا صادقًا عن أهدافها ورغباتها فما ينتهي إليه رأي هؤلاء جميعهم أو معظمهم هو ما ينتهي إليه رأي الأمة كلها لو أخذ رأي أفرادها عن طريق الاستفتاء العام[٢] .

فالإسلام إذن لا يختلف في هذا الصدد عن الجمهوريات الديموقراطية الحديثة إلا

---

(١) الحقوق والواجبات . للدكتور رأفت عثمان ص ٥٢ والإسلام وأصول الحكم . للشيخ علي عبد الرازق .

(٢) الحرية في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٩٧ .

في الطريق الذي يسلكه لكي يقف على رأي الأمة ولكي يدع لها الحرية في اختيار حكامها، وهو في ذلك يسلك أقصر الطرق وأصدقها في تحقيق الغرض المقصود، ويطلق في المصطلحات السياسية للإسلام على الاختيار الذي يتم على هذا الوجه كلمة "المبايعة" أو "البيعة"، وفي هذا أبلغ دلالة على إعطاء العهد بالطاعة لولي الأمر.

يقول الشيخ بخيت : [إن منصب الخليفة إنما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد، والإمام إنما هو وكيل الأمة وإن أفرادها هم الذين يولونه السلطة، فمصدر قوة الخليفة هو الأمة، يستمد سلطانه منها، والمسلمون هم أول أمة قالت بأن الأمة مصدر السلطات"(١).

ومن هذا يتبين مبلغ الخطأ فيما ذهب إليه ابن خلدون إذ قرر أن للإمام الحق في أن يولي من المسلمين من يخلفه وأن ينصب ولي عهد له مستدلاً بوصية أبي بكر لعمر ووصية عمر لواحد من الستة(٢) فقد فاته أن خلافة عمر لم تتم بوصية أبي بكر، وأن خلافة عثمان لم تتم بوصية عمر، وإنما تمت خلافتهما بمبايعة أهل الحل والعقد، ولم تكن وصية أبي بكر، ولا وصية عمر إلا مجرد إبداء رأي شخصي، أو مجرد ترشيح للرئاسة.

*** حق الأمة في مراقبة الحاكم ومحاسبته على أعماله :**

ومع أن الإسلام جعل إطاعة ولي الأمر واجبة بل جعلها من طاعة الله سبحانه أخذًا من قوله تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[النساء:٩٥].

فإن هذا الوجوب لا ينفي الحق السياسي الذي أعطاه الإسلام للمسلم في دولته،

(١) انظر أصول الحكم له.

(٢) مقدمة ابن خلدون الجزء الثاني ص ٧٢١ الطبقة الثانية.

وهو بمقتضى هذا الحق يصبح من سلطته مراقبة الحاكم في وظيفته ومحاسبته على أعماله وأخطائه باعتبار أن الحاكم نائب عن الأمة في تولية أمورهم ومصالحهم وهم الذين نصبوه بمحض إرادتهم على أن يكون في صالح المسلمين، وقد انعقد إجماع المسلمين على ذلك .

وقد طبق الخلفاء الراشدون هذا المبدأ تطبيقًا جيدًا بل اعتبروا تقصير الأمة في مزاولة هذا الحق خطأً كبيرًا وإثمًا عظيمًا واعتبروا تمسك الأمة معهم بحقهم في المراقبة إنما هو علامة على أن الجميع يسيرون في الطريق السليم الذي يرضي الله ويحقق السعادة والأمن لأفراد المجتمع الإسلامي .

وفي ذلك يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الكلمة التي ألقاها عقب مبايعته بالخلافة : [**أما بعد فإني وليت عليكم ولست بخيركم . . فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم**] .

ويقول في كلمة أخرى : [**إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني**] .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد توليه الحكم : [**إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله ، أنني أعقل الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم أمري فإنما أنا رجل منكم وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه**] .

بل وحينما قال رضي الله عنه في كلمة أخرى : [**أيها الناس من رأى في اعوجاجا فليقومه**] تقدم إليه رجل وقال : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فرد عمر قائلا : الحمد لله أن كان في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بالسيف] .

وحينما أخذت طائفة من المسلمين على عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد توليه الحكم خلفا لعمر بعض أخطاء في تصريفه لشئون الحكم من وجهة نظرهم أذعن لهم

وقال : [إني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء مما عابه علي المسلمون، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : **"من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، ولا يتمادى في الهلكة فإن من تمادى في الجور كان أبعد ، فإذا نزلت من منبري فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم ، فوالله لئن ردني الحق عبدًا لأذلن ذل العبيد"** .

* من حق الأمة الرجوع إليها في الأمور الهامة :

ويستتبع الحق السابق وهو حق مراقبة الأمة للحاكم في كل أعماله ومحاسبته على تقصيره أن يرجع إليها في الأمور الهامة التي ترى الأمة ذلك ويجب أن يؤخذ رأيها فيها ، ومع أن النبي ﷺ كان لا يفعل شيئًا إلا بأمر ربه فقد كان مأمورًا أن يشاور أصحابه في الأمر ، قال تعالى :

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقال تعالى في صفات المؤمنين الكاملين : **﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾** [الشورى : ٣٨] .

وقد أخذ الخلفاء الراشدون بمبدأ الشورى في شئون الحكم ، وخاصة في الخطير منها وفي التاريخ الإسلامي مئات من الأمثلة الدالة على حرصهم على العمل بهذا المبدأ القويم[1] .

* * *

(١) راجع الحرية في الإسلام ص ٩٤- ١١١ .

عظمة النهاية لصاحب الرسالة ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى

بينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة وأبو بكرة يصلي بهم فجأهم رسول الله ﷺوقد كشف ستر حجرته ، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل النبي الحجرة وأرخى الستر، ثم غمر رسول الله ﷺ وتغشاه من المرض ما تغشاه ، فقالت فاطمة : واكرب أباه ، فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم ، وبين صدر عائشة ونحرها رفع رأسه إلى السماء ، وأسلم روحه إلى بارئها وهو يقول :**"اللهم الرفيق الأعلى"** .

وتولى غسله علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل وقثم ولدي العباس وأسامة بن زيد وشقروان مولى النبي ﷺ ، وقد غسلوه في قميصه ، يصبون الماء فوق القميص الذي كان عليه ، وجعل عليٌّ رضي الله عنه يقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أطيبك حيًّا وميتًا وكفن في ثلاثة أثواب .

ثم دفن من الغد ، وقيل ليلة الأربعاء كما عند ابن هشام ، بعد أن رفع فراشه الذي مات عليه ، وحفر له تحته ، ووضع على سريره ، وبنى عليه ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالا ، الرجال أولا ثم النساء ، ولم يؤم الناس على رسول الله أحد[1] .

---

(١) التاريخ الإسلامي . للدكتور الطيب النجار ص ٢٣٥ .

* **مبادئ خالدة :**

وكان النبي ﷺ قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى قد حج بالناس الذين بلغ عددهم أربعين ألفًا ومعه جميع نسائه حجة الوداع وكان ذلك في السنة العاشرة للهجرة النبوية الشريفة سنة ٦٣٢ م .

وفي هذه الحجة وعندما طلعت شمس المعرفة ، وفي بطن الوادي من أرض عرفة وقف ﷺ على ناقته القصواء وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

"أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربًا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله".

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

"أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حق . أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخل بيوتكم من تكرهون ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا ، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي ، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون ؟ " قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال وهو يرفع إصبعه السبابة إلى السماء ويردها مشيرًا بها إلى الناس :

"اللَّهم اشهد ، اللَّهم اشهد ، اللَّهم اشهد"[1] .

وفي بعض الروايات : **"ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب".**

---

(١) راجع صحيح البخاري ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، والكامل لابن الأثير ج٢ ص ٢٠٦ ومروج الذهب ٢ / ١٨٤ .

أزماتنا وكيف الخلاص منها

وبعد ، فهل بلغتنا الدعوة وهل بلغناها كما أرادها الله ورسوله ﷺ حقًا، وماذا نحن الآن منها .

وقد كانت هذه الأسئلة ولا زالت تلح علي عندما أرى حال المسلمين في بلدهم وأرى شبابهم وقد طحنتهم المادة والتصارع عليها وأصبحنا نعاني من ضعفنا أخلاقيًا، وعجزنا عن ملاحقة الفساد الذي ساد بين الناس فانتشرت الرشوة وكثرت الاختلاسات في الأموال العامة والخاصة وعز على كثير من الناس الحصول على قوت يومهم الضروري بينما هناك المترفون الذين تزداد ثرواتهم يومًا بعد يوم وذلك في غيبة من الأخلاق والضمير .

لقد هالني ما رأيت الشباب عليه من حيرة في تفسير ما يجري أمام أعينهم وهم في دولة إسلامية ، ونظروا إلى حضارة الغرب والشرق باعتبارها المخلص الوحيد لما يرونه أمام أعينهم من تفكك اجتماعي وتخلف في علوم الحياة فكانت الصراعات بين اعتناق أي النظريات منهم ففريق يولي وجهه النظرية الرأسمالية الغربية وآخر نحو النظرية الماركسية والشيوعية ، وقد انحرف البعض منهم في هذا التفكير حتى وصل حد العمل ضد مصلحة البلد الذي يعيش من خيره وينبت فيه .

*** الطريق إلى النجاة :**

وإن الحل الوحيد لعلاج كل هذه المتناقضات إنما هو في الرجوع إلى دعوة الإسلام وتطبيق كل مبادئها تطبيقا كاملا والعمل بشريعة الله رب العالمين .

إن الإسلام غني بحضارته ومبادئه وقد أثرى العالم لفترة طويلة من الزمن من هذه الحضارة عندما كان القائمون عليها رجالا يحبون الله ورسوله ﷺ وأحبهم الله ورسوله ﷺ وعرفوا أن الإسلام دين ودولة عقيدة وشريعة .

وقد رأينا في دراستنا السابقة ماذا قدم الإسلام للعالم من حقوق وواجبات في

السلم والحرب ، وأن الإسلام هو شريعة الله الخالدة التي أرادها لإسعاد البشر إلى أن تقوم الساعة في كل زمان وفي كل مكان .

وإذا كنا الآن لا نفهم هذه الحقائق عن الإسلام ، فإن هذا ليس بعيب فيه وإنما العيب فينا ونحن عنه غافلون أو متغافلون .

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

*** الأسلوب الصحيح للتعليم هو أنسب الطرق لرفاهية المجتمع :**

لقد فصلنا الدين الإسلامي عن الدولة في مراحل التعليم وأصبح الشباب ينظر إليه على أنه عقيدة وفقط ، ولم نعلمه أنه عقيدة وشريعة ، لم نغرس فيه من أول مراحل تعليمه أن الدين الإسلامي هو أساس كل العلوم، ومنبع جميع الثقافات الإنسانية المخلصة ، وإشعاع الحضارات الحديثة في العالم .

وقد زاد الطين بلة أن الأمر ظل فترة طويلة والشباب لا يعرف عن دينه حتى هذه المرحلة الأولى إلا ما ورثه من انتسابه لأسرة مسلمة وكفى ، لأنه ما دام الأمر لا نجاح ولا رسوب ولا امتحان في مادة الدين ، فعلام نتعب أنفسنا ونجهدها فيما لا فائدة منه ؟ وهذه كانت سياسية استعمارية أدخلها أعداء الإسلام إلى بلادنا عندما دخلوها في ضعف من المسلمين وغفلة عن دينهم وهم يعرفون جيدًا قيمة هذا الدين في حضارة الشعوب ، وغفل المسلمون عن ذلك حتى القائمين على أمورهم وأمور تعليمهم وانساقوا وراء هذه الأفكار التي تريد النيل منهم وهم لا يشعرون .

حتى إذا ما تنبه المسلمون لهذا المخطط الاستعماري المجرم أخذوا في الاتجاه إلى الطريق السليم وأصبح الدين مادة أساسية فيها نجاح ورسوب وإن كانت لا تضاف إلى المجموع وهو خطأ فاحش وكبير .

وقد رأينا أولي الأمر في هذه الأيام يعرفون هذه الحقيقة جيدًا فاتجهوا إلى إحياء شعار العلم والإيمان من دولة الإسلام ، وإن كنت أرى أن العمل الذي يبذل في هذا المجال لا يتناسب مع ما قصد منه من حضارة للمجتمع ، ونأمل منهم المزيد على هذا

الطريق والله يوفقهم ويرعاهم .

ونحن نتساءل :

لماذا لا يدرس الدين في جميع مراحل التعليم على أنه مصدر العلوم وأن يكون مادة أساسية في البحث والدراسة والمنهج ؟

ولماذا لا نغير اسمها إلى ما يتناسب مع حقيقة هذه المادة كأن نطلق عليها مثلاً مادة "أسس العلوم" أو "مصادر العلوم" أو "دساتير الحياة" باعتبار أن علوم الحياة في الإسلام هي من صميم الدين ؟

ومن هنا فإذا ما درس طالب التعليم الحساب ، والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة ، والطب ، والنبات ، سيشعر حقًّا أنه يدرس الدين الإسلامي ، ومن هنا سيصبح الطبيب طبيبًا مسلمًا وعالم الكيمياء كيميائيًّا مسلمًا ، ومدرس النبات والطبيعة مدرسًا مسلمًا ، ويومئذ سيتحقق الرخاء والعدل الاجتماعي الذي ينشده الجميع ، ونفتقده الآن وينعدم هروب العلماء بخبراتهم إلى خارج بلادهم إلا لمصلحة التقدم الحضاري وإسعاد البشرية باعتبار أن الإسلام دعوة عالمية في صالح البشرية .

وهنا تحقق الأخوة التي أرادها الإسلام أن تنشر رحمتها على كل الناس أجمعين ، أن العلم ضروري ولكن المشكلة هي كيف نأخذ هذا العلم .

إن المنهج العلمي الموضوعي يقوم على استنباط قوانين الطبيعة من التجربة ومن استقراء الشواهد المحسوسة ولهذا فهو يتضمن رفض كل ما هو غيب وكل ما هو غير محسوس .

ولهذا تستمد العقلية العلمية الغير إسلامية فكرة الله والقدر والجن والملائكة والعالم الآخر ابتداء ودون مناقشة .

وإذا لم نحل هذه المشكلة لطالب الابتدائي والثانوي الذي نلقي إليه بكتب الكيمياء والطبيعة والكهرباء فإنه سوف يدركها بنفسه وسوف يدخل في صراع مع

أفكاره الدينية الموروثة وهو صراع سوف ترجح فيه كفة العلم إذا اختار هذا الطالب طريق الجامعة وإذا غرق أكثر وأكثر في تخصص علمي .

وأكبر خطأ ارتكبناه في حق هذا الطالب أننا قسمنا التعليم إلى نوعين تعليم ديني وتعليم علمي .

هذه الازدواجية التي فصلنا فيها بين أزهر وجامعة كانت أكبر خطيئة لأنها كانت الباب الذي خرج منه المتعلم الجامعي من دينه وكانت الفصل بينه وبين تراثه الروحي .

يقول الأستاذ مصطفى محمود(١) : "إن العلم في نظري لا يقبل الازدواج لأن الحقيقة واحدة كل ما في الأمور أن هناك حقائق في محيطنا البشرى يمكن معرفتها بالاستقراء والتجربة وحقائق إلهية لا يمكن معرفتها بالتجربة ولا يمكن أن تأتينا إلا وحيًا.

ولا تناقض بين الاثنين ولا يصح أن يستبعد أحد العلمين العلم الآخر، ولابد أن تضم الجامعة كلا النوعين من التعليم من سنواتها الأولى إلى سنواتها الأخيرة وأن يكون الدين مادة أساسية وأن تكون المعارف الإلهية مادة أساسية .

وأن يكون صراع الدين والعلم في ذهن الطالب صراعًا بصوت عال يشترك فيه الطالب والمدرس من بدايته وأن يتصرف الطالب من البداية على أن هناك نوعين من الحقائق : حقائق موضوعية كالكهرباء أو الذرة والبخار يمكن أن يجتهد فيها بالتجربة وحقائق إلهية خافية لا يمكن أن تأتي إلا وحيًا عن طريق الرسالات وهذه الحقائق وسيلة اليقين فيها القلب وليس العقل ، ولا تناقض بين العلوم الإلهية والعلوم الموضوعية (علوم الحياة) كل الفرق أن العلوم الإلهية أشمل وأكثر إحاطة وأنها علوم يقينية بينما العلوم الموضوعية علوم جزئية احتمالية إحصائية تتغير فيها النظريات وتتبدل .

وبهذا يمكن أن نأخذ من الغرب علمه دون أن نفقد تراثنا الروحي ذلك التراث

---

(١) الماركسية والإسلام . لمصطفى محمود ص ٤٠ .

الذي كان أعظم عطاء أعطته هذه الأرض مهبط الأديان وبذلك يمكن أن نأمل في أن يخرج من مدارسنا كل يوم من يستطيع أن يرد على ماركس وفرويد وألا نكون كالذباب الذي يقع في شراك خيوط العناكب الواهية التي تتصيده كل يوم العقول اليهودية العبقرية التي تريد أن تصيبنا في القلب وفي الصميم قبل أن تنقض علينا لتلتهمنا .

وسوف تكون هذه التربية العلمية أكثر من مجرد خطة علمية . . سوف تكون خطة سياسية للاهتداء إلى فكر جديد نابع من تراثنا وواقعنا أفضل من التقليد والجري وراء الموضات الفكرية الأجنبية .

وإن الأخوة التي أمر بها الإسلام بين الناس عامة وبين المؤمنين خاصة، لن يكون لها وجود البتة في الأحوال التي يختل فيها التوازن المادي اختلالاً فاضحًا بين بعض البشر وبعضهم الآخر .

ولذلك مهما صرخت في آذان الناس بقول الله سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ ومهما ناشدتهم بقول رسوله ﷺ : **"كونوا عباد الله إخوانًا"** فلن نجد إجابة علمية شافية ما دامت المعاملات المقررة تجري على قاعدة التفاوت المادي والأدبي بين طبقات الأمة الواحدة[1] .

ومن هنا اتجه الناس بأنظارهم إلى الغرب أو الشرق لتحقيق هذا التوازن المادي الذي يفتقدونه فيما بينهم باعتبارهما حققا السعادة والرخاء لأفراد مجتمعاتهم .

ولكن حقا هل تحققت السعادة لهذه الشعوب في غيبة من الدين ؟ أنه لا الرأسمالية ولا الشيوعية قدرت على تحقيق هذه السعادة بل عجزت كل منهما وضلت الطريق الصحيح .

إن الماركسية أبدا لم تكن فلسفة متكاملة ، نابعة من الأخلاق والضمير ،

(١) الإسلام المفترى عليه . الأستاذ محمد الغزالي ص ٩٠ .

ومصلحة الإنسان . . وإنما كانت منشورًا للتحريض وقد كرست كل وسائلها لهذا التحريض فحملت لافتة مكذوبة بادعاء العلم والعلمية والموضوعية لتعبئ بها المثقفين واستخدمت الأسلوب العاطفي لمخاطبة العمال والفلاحين تناديهم بأنهم الطليعة والطبقة المختارة لقيادة التاريخ والشرفاء ورواد المستقبل وأبطال التاريخ الذين يملكون وحدهم النقاء الثوري ، واعتمدت على أن حافز المصلحة عند هذه الطبقة الفقيرة مضافًا إليه مدد السخط والحقد والحسد سوف يزود هذه الكتل البشرية بطاقة الدفع المطلوبة .

والمثقف فيها واحد من ثلاثة .

مثقف يعتنق الماركسية بدافع من نزعات مثالية في تحقيق العدالة ناسيًا أن النظرية التي اعتنقها هي ألد أعداء المثالية .

ومثقف يجد نفسه في المعركة بدافع الانتهازية والوصول السريع محاولاً أن يركب الموجة العالية التي أدرك بذكائه أنها سوف تغلب كل شيء .

ومثقف يقبل مترددًا بإغراء اللافتة الجذابة التي تتكلم عن النظرة العلمية والفكر الموضوعي فيقرأ المنشورات في انبهار ثم لا يكتفي بالمنشورات فيغوص في المراجع الأصلية ليستكمل رحلته فمثل هذا المثقف سوف يكتشف شيئًا فشيئًا تهافت الفكر الماركسي وتناقضه ومجافاته للروح العلمية وتعسفه واستخدامه للميكافيلية الفلسفية بهدم الموجود بأي ثمن .

ومثل هذا المثقف هو أول من تدور عليه الدوائر إذا حدث الانقلاب وهو أول من يسجن ويضطهد وتراقب خطواته وهذا المثقف هو مثل لأزمة الثقافة والمثقفين ، إن الحركة الماركسية التي تأتي على أكتاف المثقفين تتحول لتجعل من المثقفين دائمًا وأبدًا أول ضحاياها .

إن الحركة الماركسية هي مجموعة متناقضات وخروق في ثوب مهلهل اسمه الفكر الماركسي يحاول أن يفسر الإنسان والمجتمع والتاريخ والكون والنشأة من وجهه نظر

شمولية ثم يعجز عن التفكير ثم يناقض نفسه بنفسه ثم لا يصل إلى شيء إلا عدة شعارات ومصطلحات مفرغة من المعنى .

وإن نجاح انتشار الفكر الماركسي في بلاد كثيرة لا يعني أنه فكر أخلاقي يمكن أن يحقق العدالة الاجتماعية وتنتشر معه الحقوق الإنسانية الكاملة .

فإن نجاح فكرة لا يعني دائمًا صوابها فقد تنتشر الأفكار الخاطئة لمجرد أنها تلقى ترحيبًا من غرائز الناس وأهوائهم (وما أسهل تعريض الجياع على الشبعانين)[1] .

ثم إن النجاح في جانب لا يعني النجاح في كل جانب وقد تنجح النظرية في بناء مصنع ومع ذلك تفشل في بناء إنسان .

وكيف تبنى الإنسان وهي ضد الدين والأخلاق الذي هو بناء الإنسان.

يقول (المانفستو الشيوعي) . . الدستور والأخلاق والدين خدعة برجوازية تتستر من ورائها البرجوازية من أجل مطامعها .

وقال لينين : إننا لا نؤمن بالله ونحن نعرف أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الله إلا استغلالاً .

أما النظرية الثانية وهي النظرية الرأسمالية فإنها قد وصلت بالإنسان إلى القمر وحققت له كل ما يتمناه من رخاء مادي ومع ذلك يحس بالشقاء والحيرة في بعض الأحيان التي قد تلجئ الكثير منهم إلى الانتحار والبعض الآخر إلى اعتناق مذاهب أخرى فاسدة يبحثون فيها عن سعادتهم المفتقدة بينهم .

ولا يصح أن نترك أنفسنا تمزقنا الأفكار الوافدة والمذاهب المستوردة كل ممزق وتجعل منا شراذم وأفرادًا ونشارة ومسحوقًا بشريًا لا يصلح لشيء سوى أن يكون مواطئ أقدام المستغلين الأذكياء من شتى المذاهب الفلسفية الهدامة[2] .

إن الإسلام من حيث إنه دين ترفض عقيدته ونظامه الشيوعية رفضًا باتًا لأنها

(١) الإسلام المفترى عليه ص ١٤٠ .

(٢) الماركسية والإسلام .

فلسفة مادية الكيان وفكرة ملحدة العقيدة .

ثم إنه ينظر إلى ثمراتها الاقتصادية ليسبغ منها ما يشاء على حسب قربها أو بعدها من منهجه الخاص .

والإسلام كذلك يرفض الرأسمالية رفضًا باتًا لأنها آفة اجتماعية وظاهرة مفسدة. ثم ينظر إلى ثمراتها الاقتصادية نظرة فاحصة فيقبل منها ما يشاء ويدع منها ما يشاء .

غير أن الشيوعية والرأسمالية وغيرهما من المذاهب تفرض نفسها كُلاً لا يتجزأ وأصحاب هذه المذاهب يريدون فرضها على الناس بما فيها من خير وشر وهذا ما يرفضه الإسلام ونرفضه نحن كمسلمين .

إننا نريد أن نقتبس من نتاج الفكر الإنساني ما يمشي طبعًا في ضوء الوحي الإلهي وأن نخرج من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين .

إننا لو نظرنا إلى الإسلام لوجدنا فيه نبعًا من الأفكار والحقائق تسبق النظامين (الشيوعي والرأسمالي) ولوجدنا كل ما حسبناه جديدًا في الاشتراكية العلمية هو أمر قديم قدم ثلاثة عشر قرنًا في الإسلام .

وقد جاء الإسلام من البداية مقررًا مبدأ المساواة في الفرص وضمان حد الكفاية للفرد وتحقيق التوازن بين حرية الفرد في الربح وحقوق المجتمع ومبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ومبدأ تدخل الدولة في الاقتصاد وهو ما نسميه اليوم بالاقتصاد الموجه ومبدأ مصادرة أموال المستغلين لصالح الفقراء والمظلومين.

والإسلام ضد التفاوت الفاحش في الثروات إذا أدى إلى الفسق والفجور والترف البغيض قال تعالى : ﴿**وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ [هود : ١١٦] ، ومع ذلك فهو ليس ضد الغنى الكبير إذا كان بضوابط وقوله ﷺ : "**لا بأس بالغنى لمن اتقى**" وفي حديث آخر : "**نعم المال الصالح للعبد الصالح**" .

وقال تعالى : ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ [الذاريات : ١٩] .

وثروة الغني لا تكون ثروة مشروعة إذا كان في المجتمع فقير واحد لا يجد القوت

قال ﷺ : **"ليس منا من بات شبعان وجاره جائع"**.

وقال أيضًا : **"من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له"** .

ويقول عمر في عام المجاعة : **لو لم يجد الناس كفايتهم من القوت فعلى أهل كل بيت أن يستضيفوا مثل عددهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم** .

وحرمة المال الخاص في الإسلام حقيقة مثل حرمة المال العام ومن يتعدى عليه تقطع يده قال تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٨] .

ويقول ﷺ : **"كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله"** إن الملكية العامة والملكية الخاصة كلاهما مقرر كأصل عام في الإسلام وحرية الفرد في الربح أصل ولكن الإسلام لا يتركها مطلقة وإنما يضع عليها قيودًا ، فلا يجوز إنتاج الخمر أو التعامل بالربا أو الاحتكار أو حبس المال عن الإنتاج ، أي اكتنازه أو صرفه في سفاهة أو جمعه من الرشوة أو الإضرار بحقوق الآخرين والمغالاة في الأسعار كما أنه لا يتعارض مع الملكية العامة إذا كان ذلك في صالح المجتمع ، وقد رفض عمر رضي الله عنه تمليك المسلمين للأرض المفتوحة بالغزو ، واعتبرها ملكية جماعية ، كما رفض تمليك الأرض الحمى "الوقف الخيرى" والمناجم والثروات في باطن الأرض واعتبرها في حكم القطاع العام وقال ﷺ : **"الناس شركه في ثلاث : الماء والنار والكلأ "** ويتميز منهج الاقتصاد الإسلامي بشيء آخر لا نجده في الرأسمالية أو الاشتراكية العلمية ، هو إشباعه للحاجات الروحية وليس المادية وحدها فمعاملة الله وإرضاؤه أصل في الإنفاق وفي الإحسان .

إنه يهدف إلى التوازن بين الفرد والمجموع وليس إلى تذويب الأفراد في المجموع كما في الاشتراكية العلمية أو إلى التضحية بالمجموع لصالح قلة من الأفراد الرأسماليين كما في الفكر الرأسمالي : إنما إلى التوفيق والمصالحة دائمًا وهذا هو منهج الإسلام هو

المنهج الحق وهو المنهج العدل فلنرجع إليه إن أردنا النجاة حقًّا مـن أزماتنـا الداخليـة والخارجية .

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على آخر الأنبياء وخاتم المرسلين .

دكتور / **نصر فريد واصل**

مفتي الديار المصرية

* * *

المحتويات

* * *